السنة السابعة (ذى الحجة سنة ١٣٦٠هـ — يناير سنة ١٩٤١م) العدد الثالث

صحيفة دار العلوم

ص ا ح ا ع ١٩٣٤

تصدرها «جماعة دار العلوم»
كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	٢٠ قرشاً
خارج القطر	٣٠ قرشاً
ثمن العدد	٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

إِنَّ بَاحِثًا مُدَقِّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ أَيْنَ تَمُوتُ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَيْنَ تَحْيَا، لَوَجَدَهَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَتَحْيَا فِي دَارِ الْعُلُومِ»

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

فهرست

العدد الثالث من السنة السابعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

شملت النهضة المصرية — فى جملة ماشملته — اللغة العربية، وعنى بها كثير من رجال مصر ، ودرسوا أدبها ، وتذوقوه ، وأدركوا مافيه من صنوف الجمال، وطلبوا دواوين الشعراء ورسائل الكتاب ومادبجته الأقلام فى كل علم وفن.

ومن العوامل التى ساعدت على النهوض باللغة العربية الحياة الدستورية؛ إذ اقتضت أن يقوم فى المجامع الخطباء مؤيدين من يرشحونهم للنيابة عنهم فى المجالس التشريعية وأن يكون للنائب كثير من بلاغة القول ، وسهولة العبارة؛ حتى يقبل الناس عليه ويدينوا بمذهبه.

ولم تأل وزارة المعارف جهدا فى اتخاذ الوسائل التى تنهض باللغة القومية، فعدلت مناهج الدراسة أكثر من مرة، واتجه المدرسون اتجاها أدبيا، واشتدت رغبة التلاميذ فى تذوق الأدب العربى، ودرسوا كثيرا من مختار الشعر والنثر. ومن وسائل التشجيع مارأته وزارة المعارف هذا العام من عقد امتحان مسابقة بين طلاب السنة التوجيهية، حتمت على من يريد الدخول فيه أن يؤدى امتحانين: أحدهما تحريرى، والآخر شفهى ، أما موضوع الامتحان فعدة من الكتب الحديثة بلغت نحو عشرة، وسيمنح الناجحون جوائز مالية ، ويتعلمون بالمجان فى جامعة فؤاد الأول.

ولا شك أن هذا من خير وسائل التشجيع، ولا يسعنا إلا أن نقدم جزيل الشكر لأصحاب هذه الفكرة، ونحث الطلاب على استغلال هذه الفرص العظيمة، فيتصلوا بكتب الأدب قديمها وحديثها، حتى تكون اللغة أداة طيعة يعبرون بها عن جميع مقاصدهم فى سهولة ويسر وجمال ؟

خطاب حضرة صاحب المعالى وزير المعارف
بافتتاح مجلس التعليم الأعلى

«ألقى حضرة صاحب المعالى الوزير الجليل الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف خطابا نفيسا على حضرات أصحاب المقام الرفيع والدولة والسعادة والعزة أعضاء مجلس المعارف الأعلى حين عقدوا أول اجتماع لهم برياسة معاليه .

وقد ألم فى هذا الخطاب بكثير من شئون التعليم ، وتتبعه فى تطوره واتساعه ، ومسايرته للنهضة المصرية ، وصور مشكلاته ، وأشار إلى وجوه الرأى المختلفة فى حلها .

وصاحب المعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا خير من يتحدث عن التعليم ، ويقدر مشكلاته فى مصر ، فهو من زعماء النهضة الادبية ، ومن قادة الرأى فى مصر والشرق ، وقد خبر وزارة المعارف عن كثب خبرة طال زمنها ؛ إذ تولاها فى وزارات مختلفة .

ويسر هذه الصحيفة أن تذيع على رجال التعليم خطاب معاليه وتدعوهم إلى التفكير فى حل المشكلات التى أشار إليها ، حتى تتعاون جميع القوى فى خلق جيل قوى يضطلع بأعباء الحياة فى رضا واطمئنان نفس ، ويهىء لهذا البلد الأمين مستقبلا مجيدا ترتقبه الأبصار وتشرئب إليه الأعناق »

التحرير

سادتى :

فى هذا الاجتماع الافتتاحى لمجلس التعليم الأعلى ، أقدم لحضراتكم خالص التحية ، وأرجو الله أن يوفقنا للنهوض بالمهمة العظيمة الدقيقة التى نضطلع بها ، فنرسم للتعليم فى مصر سياسة مستقرة ، تزيد الأمة طمأنينة إلى المستقبل ، واثقة بأن التعليم سيتجه بالبلاد إلى الغرض الصحيح ، الذى نتوخاه منه ، والذى نرجو به لمصر رفعة ومجدا ، ولبنيها عزا ورخاء وكرامة .

واست أبالغ حين أنوه بجلال هذه المهمة ودقتها . وهل أجل من بناء

مستقبل البلاد فى شتى جوانبه ؟ وهل أدق من هذه المهمة فى أحوال مصر وأحوال العالم الحاضرة ؟

لقد مر التعليم عندنا أثناء السنوات العشرين الأخيرة بأطوار شتى، واتسع نطاقه أضعافا مضاعفة ، وتغير الغرض منه مثلما تغيرت نظرة مصر للمستقبل ، وكما تغير مثلها الأعلى فى الحياة . وقد دفعنا تيار هذا التطور والتغير دفعاً شديداً ، حتى بلغنا المكان الذى نحن فيه اليوم . فحرى بنا الآن أن نستجم، فنرجع البصر إلى هذا الماضى ، ثم نرتد به فنمده إلى المستقبل ، حتى لا نظل فى اندفاعنا مع التيار ، دون تحكم فيه وتوجيه إياه إلى الغاية التى نريدها ، والغرض الذى نقصد إليه .

حسبي لتصوير السرعة التى سار بها التعليم وتطوره فى مصر ، أن أذكر لحضراتكم أن مصروفات التعليم المدرجة فى ميزانية الدولة العامة كانت فى سنة ١٩٢٠ — ١,٠١٣,٥٠٣ جنيهاً مصرياً وأنها الآن ٥,٦١٩,١٨١ جنيهاً مصرياً منها لوزارة المعارف ٤,٧٦٩,٨٨١ جنيهاً وللجامعة ٨٤٩,٣٠٠ جنيها . وقد كان عدد المدرسين بمدارس الوزارة فى مراحل التعليم المختلفة سنة ١٩٢٠ — ١٢٩٣ مدرساً ، وهم اليوم ٧٢٧٧ .

وكانت مدارس التعليم الثانوى سنة ١٩٢٠ تسعا وبها ٣٣١٤ تلميذا ، أما الآن فهى ست وثلاثين بها ١٩٧٤٩ تلميذا .

وقد انتقل عدد مدارس التعليم الابتدائى من ٣٤ فى سنة ١٩٢٠ إلى ١٣٢ مدرسة الآن ، وانتقل عدد تلاميذها من ١٠,٧٤٩ فى سنة ١٩٢٠ إلى ٢٤,٣٠١ الآن .

أما التعليم الفنى (صناعى وتجارى وزراعى) فكانت مدارسه سبعا فى سنة ١٩٢٠ وأصبحت الآن سبعا وثلاثين . وكان عدد تلاميذها ١٤١٢ سنة ١٩٢٠ فأصبحوا الآن ١٣,٨٠٠ .

ولم يكن بمصر فى سنة ١٩٢٠ غير مدرسة ثانوية واحدة للبنات ، عدد تلميذاتها ٢٨ ، أما اليوم فعندنا ثمانى مدارس من هذا النوع بها ألف وستمائة تلميذة .

وفى هذه الفترة أنشئت إلى جانب التعليم الثانوى للبنات المدارس النسوية الراقية والمدارس الفنية والخصوصية كالفنون الطرزية والثقافة النسوية وكلية البنات وما إليها . وقد بلغ عدد هذه المدارس الآن ، خلا مدارس المعلمات ، اثنتى عشرة مدرسة بها ٢٤١١ طالبة .

وكانت مدارس البنات الابتدائية خمسا فى سنة ١٩٢٠ عدد تلميذاتها ٨٤٣ أما الآن فعدد هذه المدارس اثنتان وثلاثون ، وعدد تلميذاتها ٣,٤٨٩ .

وقد تضاعف نشاط التعليم الحر واستأثر بالحظ الأكبر من التعليم الابتدائى ، وبحظ غير قليل من التعليم الثانوى . كانت مدارسه فى سنة ١٩٢٠ ، ٦١ مدرسة للبنين و ٢٥ مدرسة للبنات بها ١٤,٦٣٨ تلميذا وتلميذة . أما الآن فللتعليم الحر الابتدائى ٢٥١ مدرسة للبنين و ٩٢ مدرسة للبنات بها جميعا ٥٦,٦٩١ تلميذاً وتلميذة . وكانت مدارس التعليم الثانوى الحر فى سنة ١٩٢٠ — ٣٢ للبنين فقط بها ٤,٤٩٠ تلميذا ، أما الآن فقد صارت ٥٩ مدرسة للبنين و ١٢ مدرسة للبنات بها جميعا ١٤,٦٢١ تلميذا وتلميذة .

وكانت مدارس التعليم الأولى والتعليم الإلزامى فى سنة ١٩٢٠ — ٣,٩٧٨ مدرسة بها ٥,٨٥١ معلما و ٢٦٢,٥٥٣ تلميذا . أما الآن فمدارسه ٤,٦٣١ مدرسة ، بها ٢٥,١٣٠ معلما ، و ١,١٤٨,٢١٩ تلميذا ، وحظه من ميزانية وزارة المعارف ١,٥٤٧,٧٨٤ جنيها .

هذه الاحصاءات ليست غريبة عليكم وكلكم تعرفون ماتم فى التعليم من توسع وتطور ، وقد كان لكل منكم فيما تم منهما نصيب ، إما بالفعل ، أو بتوجيه سياسة هذه الوزارة .

كان لهذا التوسع وهذا التطور أثر كبير فى نهضة مصر الأخيرة. فهذا العدد العظيم من المتعلمين قد اشترك بصورة ظاهرة للعيان فى جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. واشتركت المرأة فيها على نحو لم يكن مألوفا من قبل. وهذا الاشتراك هو الذى أسرع بنهضتنا. وهو الذى جعلنا نحس منها ما لم نكن نحسه من قبل؛ لأن حياتنا أصبحت بفضله حياة يقظة وتوثب، ولم تبق حياة استماتة وجمود.

وإحساسنا بما فى حياتنا العامة من نقص هو الذى أدى بنا لنتطلع إلى التعليم وأن نسائل أنفسنا عما إذا كانت سياستنا فيه مرجع هذا النقص. وهذا طبيعى. فنحن أمة تريد النهوض السريع، وتقدر بحق أن التعليم الصحيح هو وسيلتنا الأكيدة إليه. فإذا شعرنا بنهضتنا تتعثر هنا أو هنالك عدنا باللائمة على التعليم، ونسينا ما قد يكون فى هذه اللائمة من إسراف؛ لأن التعليم وحده ليس كل شىء فى حياة الأمم، وإن كان هو العصب الأقوى فى هذه الحيـاة.

ومن هذا الإسراف القول بأن سياسة وزارة المعارف فى السنوات العشرين الماضية كانت سياسة ارتجال وتجارب. أفكان فى مقدور الوزارة أن تغفل التجارب، والمدى ينفسح أمامها بسرعة تفوق الطاقة: فى إعداد المدارس، وفى إعداد المعلمين، وفى تنظيم التعليم؟ إننى أقرر للإنصاف أن المجهود الذى بذلته الوزارة فى هذه السنوات العشرين كان مجهودا جبارا خليقا بالثناء، وهو كذلك بخاصة فى فترة لم يكن وقف التوسع فيها ممكنا، ولم يكن متفقا مع المصلحة العامة.

على أن الوزارة لم ترض أن تنفرد بالرأى فى هذه المرحلة الدقيقة التى لم تجتزها وزارة غيرها فى مصر. بل استدعت فى سنة ١٩٢٨ خبيرين عالميين فى شئون التعليم هما مستر مان ومسيو كلاباريد. وقد كان للتقرير الذى وضعه

كل منهما أثر محمود فى معاونة رجالها على توجيه سياسة التعليم وخططه .

أيها السادة :

وصل التعليم فى الآونة الحاضرة من حيث التوسع والتطور إلى مرحلة يجمل الاستجام عندها والتفكير فيها ، لوضع سياسة مستقرة تتجه بالتعليم إلى الغرض الصحيح منه . وقد سلخت أمم كبرى فى هذا القرن العشرين سنوات طويلة قبل أن تضع مثل هذه السياسة . ذلك لأن سياسة التعليم ليست نظاما آليا ينقله شعب عن شعب ، وتكتفى أمة فيه بتجارب أمة أخرى ، بل هى روح الحياة الإنسانية فى الأمة ، تتصل بأدق خصائصها ، وتصل بين ماضيها وحاضرها؛لتصور مستقبلها على النحو الذى يحقق مثلها الأعلى فى الحياة .

والآن فما هو غرض مصر من التعليم ؟ إن جوابنا عن هذا السؤال هو الذى يمهد لنا تحديد السياسة التى تتجه بنا إلى هذا الغرض . ترى أتكون غايتنا الأولى من التعليم تسليح الناشىء بوسائل الكفاح فى الحياة ليستطيع تحصيل الرزق فيها بخير الوسائل ؟ وبعبارة أخرى : هل نتجه بالتعليم ليكون وسيلة قوية فى يد الفرد يصل بها إلى غاية مايستطيع من أسباب الرخاء ؟ أم ترى تكون غايتنا الأولى من التعليم قومية تربط عناصر الأمة بعضها ببعض وتسلح الفرد فى نفس الوقت بأسباب الحياة النفسية والروحية التى تجعله قوة متحركة فى نظام هذه العناصر ، مطمئنين إلى أن تحصيل الرزق نتيجة طبيعية لعمل الفرد ولنشاط الأمة فى الحياة وقدرتهما بذلك على السعى فيها وتثمير خيراتها؟

تتجه أحدث الآراء إلى أن المدرسة هى الأساس الأول لتضامن قوى الأمة من الأسرة إلى الدولة ، وهى بذلك مقومة الروح الإنسانية والاجتماعية للجيل الجديد ، ومن ثم كانت مهمتها إعداد الناشىء ليكون وطنيا سليم الجسم والخلق والعقل ، قادرا على النهوض فى الجماعة التى يعيش فيها بعبء الحياة الوطنية الصالحة ، سواء فى ظل الحضارة الإنسانية الحالية ، أو فى ظل حضارة

أسمى منها،أدنى إلى مراتب الكمال فى حدود الطاقة الإنسانية .

هل يتفق هذا الرأى مع مانصبو إليه ، فجدير بنا أن نصور غرض التعليم على هداه؟ أم أن أحوالنا تقتضينا صورة أخرى للغرض من التعليم ؟ هذا أمر لم نحدده بعد ، وواجبنا الأول أن نحدده بجلاء ووضوح .

سادتى :

لقد أدى بنا عدم تحديد الغرض من التعليم إلى الاختلاف فى الرأى على كل مرحلة من مراحله . خذوا التعليم الأولى مثلا . أفيكون هذا التعليم مرحلة قائمة بذاتها مستقلة عن التعليم العام فى المدارس الابتدائية؟ أم يجب خلق الصلة بين هذين النوعين من التعليم ؟وإذا قر الرأى على أنه مرحلة مستقلة بذاتها ، أفيكون الغرض منه محو الأمية أم تكون غايته تزويد الناشىء بما نعتبره القسط الأدنى من الثقافة لربط العدد الأكبر من عناصر الأمة برباط يرقى به إلى مستوى يدنيه من سائر هذه العناصر ؟

اختلف الرأى بمصر فى هذه المسائل ، وسمعنا فى البرلمان وخارج البرلمان ميولا واتجاهات شتى يتعذر التوفيق بينها . بل إن من الناس من يرى أن يخضع الرأى فى هذه المسألة الجوهرية إلى الاعتبارات المالية بميزانية الدولة . حتى أن قوما يرون نظام نصف اليوم فى التعليم الإلزامى غير مثمر وقد يكون ضرره أكبر من نفعه ، ثم يرون مع ذلك ألا سبيل لنا إلى العدول عنه أو ابتكار نظام سواه اتقاء النفقات التى تبهظ الميزانية .

والذين يقولون بأن الغرض من هذا التعليم تزويد الناشىء بالقسط الأدنى من الثقافة القومية ، وأنه يجب مع ذلك أن يظل مرحلة مستقلة بذاتها ، يختلفون فيما إذا كانت المصلحة تقضى بإنشاء مرحلة تكميلية لهذا التعليم ، أو بإضافة برنامج عملى فى السنوات الأخيرة منه لتعليم الناشئين فيه مبادىء الصناعة أو الزراعة أو التجارة ،

أما الذين يرون أن ترتبط مرحلة التعليم الأولى بمرحلة التعليم العام ، فمذهبهم أن القسط الأدنى من الثقافة القوية مشترك بين هذين النوعين من التعليم ، وهذا القسط لا يكفى فيه مجرد تعليم القراءة والكتابة ، بل يجب إلى جانب ذلك أن نعنى بتقوية أجسام الأطفال، وتثقيف عقولهم، وتزويدهم بقدر من التربية الاجتماعية يقوى الشعور القومى فى نفوسهم، ويؤهلهم لحسن تأدية واجباتهم والانتفاع بحقوقهم ويساعد على رفع مستوى حياتهم .

ويزيد هؤلاء أن وجود هوة واسعة بين التعليم الأولى — وهو تعليم الشعب — والتعليم العام — وهو تعليم الخاصة — فيه خطر على وحدة الأمة وكيانها الاجتماعى ؛ لأنه يؤكد الفروق بين الطبقات ، ويباعد بين عقلياتها فى تصور الحياة .

كل هذه مسائل عظيمة الأهمية . لكن الفصل فيها لا سبيل إليه مالم نحدد الغرض من التعليم . فإذا ماحددناه استطعنا أن نقر فى كل مسألة رأيا يتفق وهذا الغرض، ويدنى البلاد من تحقيقه .

ومرحلة التعليم العام ، الابتدائى والثانوى ، يختلف الرأى كذلك فى أمرها، تبعا لاختلاف الرأى فى اتصالها أو عدم اتصالها بمرحلة التعليم الأولى ، فإن كانت متصلة بالتعليم الأولى ، أفلا يجمل أن توحد المدرسة التى تتولى التعليم العام ، وأن تبدأ حيث ينتهى التعليم الأولى ؟ أم أن من الخير إيجاد مدرستين متوازيتين ، إحداهما مجانية لسواد الشعب ، والأخرى للقادرين فلا مجانية فيها ، تكونان متقاربتين فى منهاجيهما وإن اختلفتا فى مبانيهما ونوع مدرسيهما وما إلى ذلك من الظروف المادية والجو العام .

أيها السادة:

سواء أكان التعليم الابتدائى مرحلة مستقلة عن التعليم الأولى أم متصلة بها فهو المرحلة التي تعد للتعليم الثانوى ولما بعده من التعليم العالي ، لهذا تناول

التفكير أمر التوسع فى التعليم الابتدائى أو تقييده ، ونحن الآن نأخذ بنظرية التوسع فيه كما قدمت . وقد أدت بنا هذه النظرية فى الوزارة إلى إقرار نظام المجانية فى المدارس الابتدائية ، بعد أن كانت المجانية محرمة فيها إلى سنة ١٩٢٠ ففى تلك السنة لم يكن بمدارس البنين الابتدائية تلميذ واحد بالمجان ، ولم يكن بمدارس البنات الابتدائية غير تلميذتين اثنتين بالمجان . أما بعد ذلك فقد توسعنا فى المجانية بهذه المدارس ، فكان عدد الذين يتمتعون بها سنة ١٩٣٠ ، ١٨٧٨ من البنين و٦٢٣ من البنات ، وعدد الذين يتمتعون اليوم بها ٤٦٧٠ من البنين و٧٨٩ من البنات ، وقد ترتب على ذلك أن ارتفعت نسبة المجانية بالمدارس الثانوية . فلم يكن بهذه المدارس من يتمتع بالمجانية فى سنة ١٩٢٠ غير ١٢٤ تلميذا كلهم من البنين . أما فى سنة ١٩٣٠ فقد كان عددهم ١٨٨٢ تلميذا و٢٢١ تلميذة . وعددهم اليوم ٤٠١١ تلميذا و ٦٣٥ تلميذة .

وإن كثيرين ليرفعون صوتهم اليوم بالشكوى من كثرة عدد الذين يلتحقون بالتعليم العام ويطلبون التقييد حتى لا يزداد عدد المتعلمين العاطلين فى البلاد . أفيكون هذا التقييد لخير البلاد ؟ وان رأيتم ذلك فهل يكون له أثر على المجانية فى التعليم الابتدائى ؟ وهل يكون له أثر على نظام المجانية بوجه عام ؟

يختلف الرأى فى هذا الأمر فى البلاد المختلفة . فالتعليم مجانى ببعضها فى كل مراحله ، مقيد مع ذلك بقيود لا علاقة لها بالمجانية . وهو فى البعض الآخر مفتوح بابه لكل القادرين عليه دون سواهم ، فيما خلا النوابغ الذين يستفيد وطنهم من نبوغهم إذا بلغوا من التعليم مراتبه العليا .

أما ونحن بصدد الكلام عن التعليم الابتدائى فثمة مشكلة لا مناص من الكلام فيها . تلك مشكلة تعليم اللغات . كانت تدرس فى هذا التعليم لغة أجنبية إلى جانب اللغة العربية منذ السنة الأولى ، وذلك إلى سنتين مضتا . وقد ألغى تدريس اللغة الأجنبية من السنة الأولى . أفيجب إلغاء تدريس اللغة الأجنبية

فى السنة الثانية كذلك أخذا برأى علماء التربية جميعا ، وبقرارات المؤتمرات التعليمية كلها ، من أن الطفل لا يصح أن يتعلم لغة أجنبية قبل الحادية عشرة ، أم أن أحوال مصر الخاصة تقتضى التجاوز عن هذا الرأى والأخذ بما يخالفه ؟ .

إذا تجاوز الطفل مرحلة التعليم الابتدائى إلى التعليم الثانوى ، فالنظام عندنا أن يعلم لغة أجنبية إضافية إلى جانب اللغة الأصلية من بدء هذه المرحلة الثانوية .

والكثيرون من رجال التعليم يرون أن تخصيص واحد وعشرين درسا من أربعة وثلاثين ، هى كل دروس الأسبوع ، لتعليم اللغات الثلاث: العربية، والأجنبية الأصلية ، والأجنبية الإضافية - سيء الأثر فى ثقافة الناشىء . أفنؤخر تعليم اللغة الأجنبية الإضافية إلى السنة الثالثة أو الرابعة فى التعليم الثانوى ؟ أم نجعل تعليم لغة ثانية مقصورا على أنواع من التخصص دون أخرى ؟ أم أن النظام القائم اليوم نظام صالح يحسن إقراره واعتباره أكثر ملاءمة لأحوال مصر الخاصة .

ومرحلة التعليم الثانوى جديرة بالكثير من التفكير والعناية فيما خلا تعليم اللغات فيها . وتحديد الغرض من هذه المرحلة أساسى لاستقامة التفكير فى أمرها . فهل التثقيف العام هو غرضها الجوهرى بصرف النظر عما بعد التعليم الثانوى من مراحل التعليم العالى ، وإذا وجب أن تعد هذه الثقافة العامة لمرحلة بعدها ، فهل تكون ثقافة نظرية بحتة غرضها الإعداد للدراسات العالية؟ أم ينبغى أن يعنى فيها بحاجات الشبيبة المتنوعة فى هذه المرحلة الدقيقة من حياتهم ، مرحلة الانتقال من الصبا إلى الشباب ؟

وإذا وجب أن تعد هذه المرحلة لما بعدها فهل تتنوع الثقافة فى المدارس الثانوية ، فتكون بعض هذه المدارس نظرية وبعضها عملية ؟ وإذا صح أن

تتحد الثقافة فى السنوات الأولى من هذه المرحلة فكم يكون عدد هذه السنوات؟ وكيف يكون التوجيه بعدها ؟ وكم تكون مدة التعليم الثانوى كلها؟

هذه كلها أمور يختلف الرأى فيها . وقد أجرت وزارة المعارف تجارب عدة يمكن الاستفادة منها فى البحث . كما أن غير مصر من الدول قد قامت بتجارب يمكننا الاستفادة منها حين نرتب على تجاربنا فى مصر نتيجة جديرة بالاستقرار .

وكانت مرحلة التوجيه كمرحلة ختامية للتعليم الثانوى بعض ما وقفنا عنده فى تجاربنا ، وبعض ما استأثرت به وزارة المعارف زمنا ، وما اشتركت الجامعة مع الوزارة فيه فى السنوات الأخيرة . ولقد فتحت مرحلة التوجيه هذه عيوننا على أمور كثيرة جديرة بعناية هذا المجلس وبحثه ، وبخاصة بعد أن اشتركت الجامعة والوزارة فى الإشراف عليها، وبعد أن اتجه النظر إلى تلافى النقص فيها.

فالجامعة ترفع صوتها بالشكوى من ضعف الطلاب الذين ينتقلون من هذه المرحلة إليها . وقد تألفت بقرار من مجلس الجامعة أثناء العام الدراسى الماضى لجنة بحثت أسباب هذا النقص، وأشارت بجعل مرحلة التوجيه سنتين لا سنة واحدة ، وبالرجوع فى امتحانات الدور الثانى إلى ما كانت عليه قبل سنة ١٩٣٧ .

ولبعض المربين وأولى الرأى فى شئون التعليم ملاحظات عن سبب هذا الضعف الذى تشير الجامعة إليه، تضيف إلى امتحانات الدور الثانى وإلى سنى التوجيه أسبابا أخرى تراها أبعد أثرا فى نظام التعليم كله .

من ذلك اختلاف الطريقة فى التعليم العام عنها فى الجامعة اختلافا جوهريا فهى فى التعليم العام طريقة تقرير ، وفى التعليم الجامعى طريقة نقد . فى التعليم العام يطالب التلميذ بأن يحفظ عن ظهر قلب كل ما يلقى عليه ، وأن يثق بصحته دون تفكير فى نقده ، وفى التعليم الجامعى تدرس العلوم للطالب على أن يفكر

فيها،وأن ينقد مايراه جديرا بالنقد منها . وهاتان الطريقتان المتعارضتان هما فى نظر أصحاب هذا الرأى سبب الضعف الذى تشكو الجامعة منه . فالتلميذ المنتقل إليها يشعر بنفسه فى جو جديد بالنسبة له ، غريب عليه ، لم يألفه فى التعليم الثانوى ولا فى السنةالتوجيهية ، فإذا لم يكن تلميذا ممتازا عجزعن متابعة الدراسات الجامعية . ولا سبيل إلى التغلب على ماتشكو الجامعة منه من ضعف الطلاب إلا بإيجاد الصلة بين الجامعة والوزارة فى طريقةالتعليم ، وخلق الدورة التعليمية التى تربط كل واحدة منهما بالأخرى برابطة وثيقة .

وسبب آخر يراه بعض المربين مرجع الضعف . تلك مدة الدراسةالثانوية فهذه المدة تقع فى أكثر البلاد الأوربية بين الحادية عشرة أو الثانية عشرة والثامنة عشرة ، وهى ست سنوات أو سبع . أما فى مصر فهى أربع سنوات فيما خلا السنة التوجيهية . وجونا الطبيعى وبيئتنا الاجتماعية والعلمية لاييسران للطلاب استيعاب العلم بالقدر الذى تيسره البيئة الأوربية . أفلا يتعين علينا ، فى نظر أصحاب هذا الرأى ، أن نزيد مدة التعليم الثانوى والتوجيه فنجعلها ست سنوات أو سبعا أسوة بغيرنا ممن يختلف جوهم عن جونا ، وممن لايرهقهم تعلم اللغات بقدر مايرهقنا ؟

ثم مسألة أيها السادة يضيفها بعضهم إلى السببين السابقين ، ويراها البعض مستقلة جديرة بالعناية لذاتها . فاللغة العربية هى لغة التعليم فى جميع مراحله ، يدرس بها التاريخ ، والجغرافيا ، والرياضيات ، والتاريخ الطبيعى ، وما إليها . مع ذلك يختلف معجمها وتتفاوت أساليب كتابتها والتفكير عن طريقها حين تدرس بها هذه العلوم — عنها حين تدرس بها علوم اللغة العربية وآدابها . فهذه اللغة ، لغتنا القومية ، تدرس علومها وأساليبها وآدابها للتاريخ أكثر مما تدرس للحياة . تدرس وكأنها لغة قديمة لها مجدها الماضى أكثر مما تدرس على

أنها لغة التفاهم والخطابة والكتابة فى حياتنا الحاضرة . أما حين يدرس بها التاريخ والجغرافيا وسائر المواد فأسلوبها وطريقة التعبير بها يصبحان لغة الكتابة المألوفة اليوم وأسلوبها . وإن بعضهم ليذكر أن هذا التفاوت ينشأ عند انصراف من لايتخصصون من بعد للغة وآدابها عن العناية بها أو المتاع بفنونها ، خلا من تدفعهم مواهب خاصة لهذه العناية ولهذا المتاع . هذا مع أن اللغة مقوم جوهرى ، بل هى المقوم الأول ، لثقافة الأمة ولنظام تفكيرها ولتصوير آمالها ومثلها العليا فى الحياة .

أيها السادة :

أنتقل الآن من التعليم العام إلى التعليم الفنى : الزراعى والتجارى والصناعى . ومشكلة هذا التعليم قد شغلت الوزارة سنوات طويلة ولاتزال تشغلها إلى اليوم . لقد رأيتم كيف انتقل هذا التعليم فى السنوات العشرين الأخيرة من سبع مدارس إلى سبع وثلاثين ، ومن ١٣١٢ طالبا إلى ١٣٨٠٠ ، وقد أثار هذا التوسع العظيم مباحث كثيرة . فالمراحل التى يتغذى منها التعليم الفنى كانت ولاتزال مدار هذا البحث . ومراحل هذا التعليم ذاته قد تشعبت فى السنوات الأخيرة تشعبا زاد هذا البحث دقة . وقد ندبت وزارة المعارف لجانا فيه من رجالها ومن رجال الوزارات الأخرى ومن المشتغلين بالأعمال الحرة ، ناطت بهم إجراء هذه البحوث ، فكان لما أشارت به هذه اللجان أثر صالح فى توجيه هذا التعليم بأنواعه المختلفة وفى مراحله المتعددة . ومع تطور أحوال البلاد الاقتصادية فى نواحيها التجارية والزراعية والصناعية . فإنا نطمع فى تصوير المستقبل الذى نرجوه لهذه النواحى فى حياتنا القومية تصويرا يعاوننا على إقرار سياسة أدنى إلى الثبات فى هذا التعليم الفنى .

يقابل التعليم الفنى للبنين تعليم فنى للبنات أشرت إليه حين ذكرت المدارس النسوية الراقية ومدارس البنات الفنية والخصوصية . وقد دلت التجارب على

أننا فى هذا الطور من انتقالنا الاجتماعى ، أحوج ما نكون إلى هذا النوع من التعليم . فإقبال الفتيات عليه أعظم بكثير من إقبالهن على التعليم الثانوى . كان عدد التلميذات بالمدارس الثانوية فى سنة ١٩٣٠ – ٣٩٩ وكان فى المدارس النسوية الخاصة ٣٤٨ ، وعددهن فى المدارس الثانوية الآن ١٥٩٩ وفى المدارس النسوية الخاصة ٢٤١١ . وقد أدى ذلك بنا إلى زيادة هذه المدارس الخاصة فى مختلف أنحاء الدولة . وقد دعا ذلك إلى إنشاء دراسات نسوية خاصة فى مدارس هذا التعليم الثانوى . وإن بعضهم ليتساءل عما إذا كان ثمة داع لوجود هذه الدراسات الخاصة وغاية القسم الثانوى الإعداد للدراسات العليا ، أم أن الخير فى توجيه الدراسة الثانوية للبنين والبنات توجيها واحدا .

أيها السادة :

أشرت إلى التعليم الحر واتساع نطاقه . والوزارة تشرف على العدد الأكبر من مدارس هذا التعليم بحكم قانون التعليم الحر . والواجب أن تشرف على معاهده جميعا . ونحن الآن نبحث مع مديرى المدارس الأجنبية أمورا جوهرية للثقافة القومية رأينا استحداثها فى هذه المدارس . وما يبديه هؤلاء المديرون من حسن الإرادة للتعاون مع الوزارة يجعل رجاءنا كبيرا فى أن نوفق لما قصدنا إليه .

ومتى أتممنا البحث فى هذا الموضوع عدلنا قانون التعليم الحر تعديلا شاملا .

أيها السادة :

يسرنى أن أضيف إلى كل ما سبق كلمة عن التربية الخلقية واتصالها بالتعليم . لقد بذلت وزارة المعارف فى السنوات الأخيرة جهودا كثيرة فى هذه الناحية من طريق الألعاب الرياضية والنشاط العلمى والاجتماعى للمدرسة ، والنهوض بالروح المعنوية للطلاب والمعلمين ، وتوثيق الروابط بين هؤلاء

وأولئك حتى تكون أسوة المعلم أقوى فى نفس الطالب أثرا . على أن هذه الجهود لاتزال فى دورها الأول ، وهى لذلك بحاجة إلى الكثير من البحث والعناية .

أيها السادة :

عرضت عليكم الآن فى إيجاز بعض المسائل التى اجتمعتم لبحثها وإبداء الرأى فيها . وثم مسائل كثيرة أخرى ستعرض عليكم فى هذه الدورة من دورات اجتماعاتكم وفى الدورات التى تليها . وإننى لأعتقد أننا متى وفقنا لتحديد أغراضنا فى الأمور الأساسية ، استطعنا أن نحل مسائل كثيرة ماتزال مثاراً للبحث . منها برامج التعليم ، وإعداد المعلمين بوجه عام ، وعلاقة معهد التربية بالجامعة ، وتقوية الشخصية لكل مدرسة من المدارس ، ولكل منطقة من مناطق التعليم ، وماإلى ذلك من أمور ستقدمها الوزارة لهذا المجلس بعد الفراغ من بحثها مبدئيا بمعرفة رجالها الفنيين .

وكل هذه البحوث تقتضى الأناة وطول الروية والتفكير . لكن أمامنا مسألتين عاجلتين بعثنا لحضراتكم بما تم من المباحث فيهما ، هما مسألة امتحانات الدور الثانى ، ونظام الامتحان بالسنة التوجيهية والتقدم لامتحان القسم الخاص من الشهادة الثانوية . ووجه الاستعجال فيهما أنا نريد عرض التشريع الخاص بهما على البرلمان بأسرع ما يستطاع .

أيها السادة :

إن العمل العظيم الذى يضطلع هذا المجلس به يقتضى تقسيمه وتكوين لجان لبحث كل مسألة من مسائله . على أننا قبل اختيار هذه اللجان يجب أن نضع لائحة هذا المجلس الداخلية ، فأدعوكم لتشكيل اللجنة التى تضع مشروعها، وأدعوكم بصفة استثنائية لتشكيل لجنة تبحث المسألتين العاجلتين اللتين أشرت إليهما : مسألة امتحانات الدور الثانى ، ونظام الامتحان بالسنة التوجيهية

والتقدم لامتحان القسم الخاص من الشهادة الثانوية . وأرجو أن نجتمع فى فى الأسبوع المقبل للبت فى اللائحة وفى هاتين المسألتين .

وأختم كلمتى شاكرا لحضراتكم مقدراً الجهد الكبير الذى ستبذلونه لخير هذه البلاد ، راجيا الله أن يوفقنا فى عملنا ، فنرسم للتعليم فى مصر سياسة مستقرة ، تزيد الأمة طمأنينة إلى المستقبل ، وثقة بأن التعليم سيتجه بالبلاد إلى الغرض الصحيح الذى ترجوه له .

ولى كبير الأمل فى هذا التوفيق ، فعهد جلالة الفاروق عهد نهوض لمصر وتقدم بها إلى ما يحقق لها الرفعة والمجد ، ولبنيها الخير والرخاء والكرامة ؟

جولات فى الأدب

للأستاذ محمد على الدسوقى

« عرفنا الأستاذ الفاضل الشيخ محمد على الدسوقى لغويا محققا ، وباحثا فى فقه اللغة مدققا ، وكثيرا ما أمتع قراء هذه الصحيفة بنفثات يراعته ، وهو اليوم ينتقل بنا إلى ميادين الأدب الصميم ، فيجول فيها جولات موفقة ، يتناول فى ثناياها القديم والحديث واللفظى والمعنوى على السواء .

متعه الله بالصحة ورزقه السلامة ! »

التحرير

(١) الإيحاء فى الشعر

لست أعنى بالإيحاء الشعرى مايوحيه إلى الشاعر رِئيُّه من الجن -كما يزعم جرير والفرزدق والأخطل أن لكل منهم رَئِيًّا من الجن يوحى إليه خياله الشّعرى . ولا أقصد شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ، وهم الذين أرادهم الله تعالى بقوله : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنسِ والجنّ يوحى بعضهم إلى بعض زخرفَ القول غرورا » . ولا الهواتف كما يزعم بعض الشعراء أنه كان فى بعض خلواته بمكة ينشد هذا البيت :

كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامرُ

فأجابه الهاتف بقوله :

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالى والجدودُ العواثر

وإنما أعنى بذلك الإيحاء مايُلهِم الشاعر من بيئة تحيط به ، أو مايكتنفه من

مظاهر الطبيعة وصور الحياة من ناطق وصامت ، فإن كان الشاعر من أهل الوبر وسكان البادية ، كان خياله مقصورا على وصف الجبال الشامخة ، والأحقاف المترامية ، والسهول والوديان ومافيها من الوحوش الأوابد ، وما تقتضيه معيشة البدو من حلّ وترحال ، وركوب الصحارى والقفار . والتفاخرِ بالكرّ والفرّ على ظهور الصافنات الجياد ، التى يتخذون من ظهورها حصونا ، ومن جلود الأنعام بيوتا يستخفونها يوم ظعنهم ويوم إقامتهم . والتغنى بالبأس والنجدة ، والنخوة والكرم ، وحمى الجار ، والذودِ عن الذمار . ينطق بذلك قولهم :

إنا إذا اشتد الزما ن وناب خطب وادلهمّ
ألفيت حول بيوتنا عدد الشجاعةِ والكرم
للقا العدا بيض السيو ف وللندى حمر النعم
هـذا وهـذا دأبنا يودى دم ويراق دم

وقولهم :

إنا متى تأتنا تلمم بساحتنا تلق الشجاعة خلقا والندى فينا
بيض صنائعنا . سود وقائعنا خضر مرابعنا ، حمر مواضينا

وإنا لنرى الشاعر البدوىّ وقد جف طبعه ، وأقفر خياله ، فلم يجد سوى الكلاب العاوية ، والوحوش الضارية ، يتمثل بها فى شعره ، فاذا مااستقر فى الحضر أخصب خياله ، ورق طبعه . وأتى بالمطرب المعجب . فذاك على بن الجهم يقول فى شعره حين أشرف من البادية يمدح الخليفة :

أنت كالكلب فى حفاظك للود م وكالتّيس فى قراع الخطوب

فهمّ أنصار الخليفة بإيذائه ، فقال لهم : دعوه فستصبغه الحاضرة بصبغتها . فلما أقام ببغداد ردحا من الزمن تصبغ بالصبغة الحضرية وأنشأ يقول :

عيون المها بين الرُّصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث ندرى ولاندرى

وإن كان الشاعر من أهل المدر ، وسكان الحضر ، ألهمه وحيَه تلك القصور الشامخة ، والمغانى الباذخة ، وما فيها من الحور والولدان ، والمغنين والقيان ، وضروب الملاهى والملاذ ، ومجالس الأنس والشراب . ومايدور فيها من بنت الحان ، ومايكتنف تلك القصور من جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وما فيها من بديع النَّور والأزهار ، وشهىُّ الفواكه والثمار .

وليس الخيال مقصورا على المحسات والمشاهدات . فقد تسبَح الروح فى سماء المعقولات ، وهناك تتلق الوحى الإلهى ، والفيض القدسى ، والإلهام الربانى ، الذى تتدفق الحكمة من جوانبه ، وتسيل البلاغة من نواحيه ، فتنبت من مخترعات الفكر أزاهير رائعة ، وتقتطف من أغصانها ثمارا شهية يانعة .

وكل هذه المظاهر والتخيلات يعتمد عليها الشاعر فى تشبيهاته ، وبقدر ملاءمته بين صور الأشياء ، وصوغها فى قالب شعرى ، يكون التفاوت فى درجات البلاغة من الإسفاف (١) إلى الإعجاز ، وبين هذين الطرفين مراحل جمة ، ومسالك وعرة ، يتبارى فيها الشعراء . فمنهم من يحوز قصب السبق ، ومنهم من يكبو به جواد الخيال ؛ فيتخلف فى حلبة السباق ، ويرشق بسهام الملام ، وماأشبه التفاوت بين الشعراء بالتفاوت بين الصاغة فى حسن السبك ، واختراع أجود الأشكال ، وأبدع النقش ، فى حين أن لاتفاوت بينهم فى جواهر المادة من فضة وذهب .

روى عن الجاحظ — وكان دميم الخلقة — أنه قال : ماغاظنى إلاامرأة كانت جالسة على حانوت صائغ ، فما إن مررت بها حتى قالت للصائغ : هاهو الذى أريد أن تنقشه على قرطى ، فسألت الصائغ عن خبرها ، فقال : إنها

(١) أسف الطائر طار فويق الأرض .

سألتنى أن أنقش على قرطها صورة الشيطان . فأجبتها بأنى مارأيت الشيطان قط حتى أرسم لك صورته . فلما رأتك قالت ماقالت .

ولما كان الحذق فى اختيار الصور وملاءمتها لما يتعرض له الشاعر من تشبيه مهمة شاقة لم يكن يرقى إلى أعلى مراتبها إلا فحول الشعراء ؛ لأنها تحتاج إلى ملابسات شتى من جودة اللفظ وشرف المعنى ، وسلامة الذوق ، وانتقاء وجه الشبه واضحا جليا حتى لايكاد السامع يتوهم أن الشبه من غير جنس المشبه به ، انظر إلى قول مجنون ليلى ، وقد رأى ظبية :

فعيناك عيناها وجيدك جيدها ... سوى أن عظم الساق منك دقيق

وقول آخر :

أقول لظبي مر بى وهو راتع ... أأنت أخو ليلى؟فقال يُقال (١)

فقلت أفى ظل الأراكة والنقا ... يقال ويُستظل؟فقال يُقال (٢)

فقلت بجار المستجير بحيكم ... إذا ماجنى ذنبا ؟ فقال يقال (٣)

وقول آخر وقد أبدع فى جعل الدموع والخمر من مادة واحدة :

تشابه دمعى إذ جرى ومدامتى ... فمن مثل مافى الكأس عيناى تسكب

فوالله ما أدرى أ بالخمر أسبلت ... جفونى أم من عبرتى كنت أشرب؟

وقد يوفق الشاعر إلى صور من التشبيه لم يسبق إليها ، فتسترعى الأسماع ، وتأخذ بمجامع القلوب ، فإذا سمعها عشاق البلاغة خروا لها سجدا خاشعين .

وقد ورد أن جمهرة الشعراء فى سوق عكاظ كانوا ينصتون إلى لبيد بن ربيعة وهو ينشد معلقته ، فلما وصل إلى تشبيه الطلول — وقد جلا عنها السيل فأزال ماعليها من الرمال حتى بدت معالمها — بالكاتب الذى يعيد ما مُحى من الصحيفة بقلمه حيث يقول :

وجلا السيول عن الطلول كأنها ... زُبرٌ تجدُّ متونَها أقلامُها

(١و٢و٣) يقال الأولى من القول . والثانية من القيلولة . والثالثة من الاقالة .

لما قال ذلك خروا له ساجدين ، وما كانت العرب لتسجد لشاعر قبله .

فلما بعث النبي ﷺ وتلا عليهم من آى الذكر الحكيم مالم يسمعوا مثله من قبل — على علو منزلتهم فى البلاغة ، وامتلاكهم ناصية الفصاحة — خروا له سجدا ، وقد نص القرآن الكريم على ذلك فى بضعة عشر موضعا كقوله تعالى : (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ، ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) . وقوله : (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) إلى غير ذلك من الآيات التى ينبغى للقارىء والسامع إذا وصلا إليها وكانا متطهرين أن يخرا ساجدين ويسمى سجود التلاوة .

وقد يرتج على الشاعر فيستوحى ماحوله من صور الأشياء لعله يظفر بما يتم به التشبيه أو الشطر الثانى من البيت ، فيقيض الله له مايلهمه مراده ، كما حكى عن بعض الشعراء أنه كان يهيىء قصيدة فى مدح الخليفة افتتحها بالغزل على عادة الشعراء فى عصره فلما وصل إلى قوله فى وصف محبوبته : بيضاء فى دعج[١] صفراء فى نعج[٢] .

أرتج عليه ، فصار يحملق بعينيه فيما حوله ليستلهمه فلم يظفر بطائل . وبينما هو كذلك إذ رأى جارية فى القصر بيدها صينية[٣] من فضة مموهة بالذهب فقال على الفور : كأنها فضة قد مسها الذهب .

وارتج على أبى تمام وقد ابتدأ شطر البيت بقوله :

وأحسن من در على صدر قينة

ثم استغلق عليه إتمام البيت ، فصار يجول بخاطره علّه يظفر بشىء أحسن من هذا فلم يجد إلى ذلك سبيلا ، وبينما هو يخبط فى دياجير الخيال ، وقدغاض

(١و٢) الدعج بفتحتين شدة بياض العين فى شدة سوادها . والنعج شدة البياض .

(٣) يؤخذ منه أن الصينية عربية.

معينه وأكدى[١] إذ سمع سائلا بالباب يستجدى ويقول : أعطونا من بياض عطاياكم فى سواد مطالبنا فألهمه تتمة البيت وقال :

وأحسن من در على صدر قينة بياض العطايا فى سواد المطالب

وقد وقع للبوصيرى مثل هذا وهو يمدح النبى ﷺ فى قصيدة البردة لما وصل إلى قوله : (محمد سيد الكونين والثقلين) أجدب خاطره فلم يظفر بتتمة البيت ، فبات مهموما فرأى المصطفى عليه الصلاة والسلام فى المنام يقول له قل :

محمد سيد الكونين والثقلين والـــفريقين من عرب ومن عجم

فقام من النوم مسرورا حيث ظفر بأمنيتين : رؤية النبى ﷺ وإتمام البيت. وقيل أيضا إنه كان به رمد فبرىء فسماها البرأة بعد أن سماها البردة .

وقد حدث لى مثل هذا حينما أردت أن أنشىء قصيدة لأقدمها إلى زعيم الأمة الخالد الذكر سعد زغلول باشا حينما حضر من النفى . وكنت راكبا القطار الذاهب من القاهرة إلى الفيوم ، فحاولت اختيار مطلع للقصيدة يكون ذا روعة فلم أوفق ، وبينما أنا أقلب وجهى فى السماء رأيت سحبا فى الجو متتالية على هيئة أمواج البحر فقلت :

ياسماء النيل من أعلى الربا خلتك البحر إذا ما اضطربا
سحبك الأمواج تزجيها الصبا تمطرين الروض قطرا أعذبا

وحياة الروض قطر السحب

ومنها :

مصر كالليث يسير الهيدبى[٢] فإذا ماسيم ضيما وثبا

---

(١) أكدى أصاب الكدية وهى الصخرة تعترض حافر البئر .

(٢) الهيدبى ضرب من السير فيه جد ونشاط .

وهى فى السلم كأسراب الظبا وهى فى الروع كصف من ظبا

فى أكف الدارعين العرب

ثم أتممت القصيدة ووضعتها فى إطار جميل ، وقدمتها إلى الزعيم الجليل.

ولما كانت الأخيلة الشعرية فى زمن الدولة العباسية قد بلغت أوج الكمال طاب لنا أن نشيد بذكر بعض شعرائها المبرزين كأبى نواس الذى أبدع فى وصف الخمر أيما إبداع وأتى فيها بالمعجزات كقوله :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء وداونى بالتى كانت هى الداء

فهذا المعنى لم يطرقه شاعر قبله ، وكان يُعَد فى زمانه من المتناقضات ؛ إذ كيف يداوى الداء بنفس الداء . ولم يدرُ فى خَلَد أبى نوَاس ولا أهل زمانه أن مذهبه هذا يعتنقه نُطُس الأطباء بعد ألف من السنين . فقد صار الآن الدواءُ الناجعُ لبعض الأمراض المعدية يؤخذ من مادة الداء . ألم تر أن المصل الواقى من الجُدَرى مستحضر من مادته وكذا مصل الخناق (الدفتريا) والهيضة (الكوليرا) . وغيرها من الأمراض ، حتى صارت جراثيم الأمراض الفتاكة تربى ثم يحقن بها بعد قتلها فتكون خير علاج لتلك الأمراض . وما عهِدنا أبا نواس طبيبا ، ولكنه الإلهام الشعرى يجعل أبا نواس طبيبا نطاسيا رغم أنفه . فليردد كل مريض الآن لطبيبه قول أبى نواس : ودوانى بالتى كانت هى الداء .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن ننوه ببعض شعرائنا العصريين الذين ذاع صيتهم فى الآفاق ، وأحيوا عهد الدولة العباسية بعد أن نهضت مصر نهضتها الأدبية ، ونفضت عنها غبار الخمول الذى خيم عليها دهرا طويلا . فهذا أمير الشعراء أحمد شوقى بك خلف أبا تمام والبحترى فى رصانة شعرهما ، وضارع المتنبى فى بديع حكمه ، حتى صارت بعض أبياته مضرب الأمثال فى كل زمان ومكان ، كما ضربت الأمثال بشعر المتنبي . فمن ذا الذي لا يتمثل بقول شوقى :

وإنما الأمم الأخلاق مابقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقوله فى رثاء المرحوم مصطفى كامل باشا .

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

مأخوذ من قول الأول : (يامن [١] يعد عليكَ العمر بالنفس) ولكن شوقى أبدع فى هذا الاقتباس وزاد عليه تشبيه دقات الساعة التى تحصى الدقائق والثوانى وقوله أيضا :

والجهل موت فإن أوتيت معجزة فابعث من الجهل أوفابعث من الرجم

ولا ننسى خيال حافظ بك ابراهيم وقد اقتفى أثر أبى نواس فى الخمريات حيث يقول :

خمرةٌ قيل إنهم عصروها من خدود الملاح فى يوم عرس

الخمر لاتعصر من الخدود ، وإنما تعصر من العنقود . ولكن لما كان ماء الخدود القانىء الرّقراق يفعل فعل الخمر فى الإسكار ، ويحاكى لونها فى الحمرة ، جعلهما الشاعر من مادة واحدة إغراقا فى المبالغة . وخص يوم العرس بالذكر لأن الغوانى يبرزن فيه للناظرين بأبهى زينة وأجمل تطرية . وقوله على لسان اللغة العربية :

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسنى وفيكم وإن عز الدواء أساتى

صور اللغة العربية فى صور حسناء فاتنة أضناها المرض ، فبليت محاسنها ، وحال لونها ، وهى تستعطف الأطباء ، علّهم ينقذونها من هذا الداء ، الذى عزّ له الدواء .

هذا وللأستاذ على الجارم بك خيال خصب ، روحى ، من سماء الخيال .

(١) هو من مقطوعة لبعض الصوفية فى الوعظ يقول فيها :

ترجو النجاة ولم تسلك طريقتها إن السفينة لاتجرى على اليبس

أصخ بسمعك إلى قوله :

هذا دمى فى وجنتيك عرفته لا تستطيع جحوده عيناك
إنى أغار من الكؤوس تجنى كأس المدامة أن تقبل فاك

أراد بالبيت الأول أنها أصحته بنبل لحظها فأسالت دمه الذى ظهر لونه على وجنتيها وقد كان انتقال الدم من إنسان إلى آخر خيالا صاغته مخيلة الشعراء ولكنه صار الآن حقيقة ، فهل نقل دم الجارم إلى محبوبته بطريق الحقن ؟ ولنداعبه بسؤال آخر وهو : بماذا عرف دمه فى وجنتيها . فهل حلل دمه ودمها فوجدهما من جنس واحد ؟

وقبس معنى البيت الثانى من قول بعضهم : (هنئت يا عود الأراك بثغرها) ولكن الجارم وضع الكأس موضع السواك . وزاد فى المعنى الغيرة من الكأس فأحسن وأجاد . وقوله فى وصف بلاد الإنكليز :

بلاد كأن الشمس ماتت بأرضها فظلت لها عين السحائب تدمع

انظر لما فى هذا المعنى من حسن التعليل ، فإن تهطال المطر فى تلك البلاد لم يكن حزنا على الشمس . وقد عهدنا الشعراء قبل الجارم يصفون الشمس بأنها مريضة على وساد الأفق وقد أصفر لونها من الضنى ، ولم يقل أحد منهم أنها ماتت حتى أتى الجارم فأنبأنا بأنها ماتت فى بلاد الإنكليز ،فظلت السحب تبكى عليها بدمع غزير وهذا من الأخيلة النادرة التى لا تعطى زمامها إلا لفحول الشعراء .

(٢) المحسنات اللفظية

التناقض اللفظى

من سحر البيان وفنون البلاغة ــ التناقض اللفظي، وهو أن يوهم الشاعر أو الناثر اجتماع النقيضين في شيء واحد وفي حال واحدة ؛ ليدخل الغرابة فى روع

السامع فيقع فى دهشة وحيرة ، ويخيل إليه أن المتكلم أتى بما هو خارق للعادة ومناقض لسنة الوجود . كقول امرىء القيس فى صفة جواده :

مِكرّ مِفرّ مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

فليس مما يجيزه العقل أن يقبل الفرس ويدبر ويكر ويفر فى آن واحد ، ولكن امرأ القيس أراد أن هذا الفرس لشدة عدوه يخيل للرائى أنه مقبل مدبر فى آن واحد ، كما يتراءى للإنسان أن النقطة النازلة خط مستقيم لسرعة سقوطها ، وأن النقطة الدائرة حلقة مستديرة لشدة دورانها ، وقد وضح مراده بقوله : كجلمود صخر حطه السيل من عل . ولما كان هذا المعنى بعيدا عن الفكر عند النظرة العجلى ، والإلمامة السانحة ، وكان تشبيهه بسقوط الحجر غير كاف فى كون الإقبال والإدبار من الفرس فى وقت واحد إذ لا يتصور ذلك مهما اشتد عدوه ، بين فى البيت الآتى أن له نظائر يحسها الأطفال ، فضلا عن أذكياء الرجال ، وذلك قوله :

درير كخذروف الوليد أداره تتابع كفيه بخيط موصل

درير يدر العدو كما تدر الحلوبة اللبن

أبان فى هذا البيت أنه كخذروف الوليد وهو هنة مثقبة يوضع فى ثقوبها خيوط تكون خيطا واحدا من الجانبين ويمسك الصبى طرفيه بيديه ويديره فيسرع فى إقبال[1] وادبار ، ولشدة دورانه لا يمكن البصر أن يميز بين حركتيه

(١) الحركة الأولى التى إلى اليمين تحدث بتدوير الصبى والعكسية التى تكون إلى اليسار تحدث من حركة القصور الذاتى ثم يستغنى عن التدوير بحركتى القصور الذاتى الناشئتين من المقاربة بين يديه والمباعدة بينهما . وذلك أن الصبى يدير الخذروف إلى اليمين بحركة مستمرة حتى تنفتل الخيوط إلى اليمين بحركة مستمرة حتى تنفتل الخيوط إلى اليمين ثم يقارب بين يديه فينحل الفتل ويدور إلى اليسار حتى يتم الحل ثم يباعد بين يديه فيعود الفتل كما كان ويدور فى أثنائه إلى اليمين وهكذا دواليك . وهذا معنى قوله: بخيط موصل أي موصل بخيط آخر إذ لا يدور بخيط واحد لا أن الخيط يربط بغيره كما توهم الزوزنى فى شرحه .

الطردية والعكسية ، ولا يكاد يفرق بين إقباله وإدباره ، وذلك أنه يدور بحركة طردية إذا باعد الطفل بين يديه ، وأخرى عكسية إذا قارب بينهما ، فجواده على هذا النمط ، ولعلك بعد هذا التبيان تحس أنك أفقت من غشية ، أو تنبهت من دهشة ، فلله در امرىء القيس لقد برهن بهذا التشبيه الرائع ، أنه أشعر الشعراء غير مدافع .

ومثله قول بعض المتأخرين فى محبوبته :

فأنت الهناء وأنت العذاب وأنت النعيم وأنت سقر

يوهم الشاعر أن محبوبته مصدر نعيم وجحيم ، فليست نفسها من مادة واحدة ، بل من عنصرين متنافرين ، ومعدنين متضادين ، وليس هذا مقصده ، وإنما يريد أنها إن وصلته غمسته فى النعيم ، وإن هجرته غمرته فى الجحيم . فإن اختارت الخلة الأولى عدّت من المحسنين . وان اختارت الثانية اعتبرت من الظالمين ، فلتختر لنفسها ما يحلو .

ومن هذا الضرب قول أبى تمام فى القلم :

لك القلم الأعلى الذى بشباته تصاب من الأمر الكلى والمفاصل

لعاب الأفاعى القاتلات لعابه وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل

لا يريد الشاعر أن مداد القلم سم زعاف ، وشهد شفاء فى وقت واحد ، وإلا كان تناقضا حقيقياً ، وإنما أراد أن الممدوح رب القلم ، فإذا ما غضب كان ما يسطره قلمه من عقاب المجرمين كسم الأفاعى حيث يصب النقمة على من خالفه صبا . وإذا رضى كان سيبه كالشهد حلاوة إذا ما عصرته الأيدى العواسل .

وقد سمى النبى ﷺ هذا النوع من البيان سحرا حينما وفد عليه قيس ابن عاصم والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم ، فسأل النبى ﷺ عمرا عن الزبرقان فقال : مطاع فى عشيرته ، شديد العارضة فيهم ، مانع لحوزته . فقال

الزبرقان: إنه ليعلم منى أكثر مما قال، ولكنه حسدنى شرفى. فقال عمرو: أما وقد قال ما قال فوالله إنه لزمن المروءة، ضيق العطن، أحمق الأب، لئيم الخال. فرأى التغير فى وجه رسول الله لما اختلف قوله. فقال: والله يارسول الله ما كذبت فى الأولى، ولقد صدقت فى الثانية. رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما وجدت. فقال عليه الصلاة والسلام: إن من البيان لسحرا. وليس من هذا النوع قول الشاعر:

دنوت تواضعا وعلوت مجدا فشأناك انخفاض وارتفاع

كذاك الشمس تبعد أن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

لأن الشرط فى التناقض اللفظى ألا يبين الشاعر أن القضاء فى حالين مختلفتين. وقد بين الشاعر أن الدنو فى حال التواضع، والعلو من جهة المجد والشرف.

ومنه أيضا قول حافظ إبراهيم فى الشمس:

وهى موت وحياة للورى وضلال وهدى للعالمين

يريد أنها متى لطفت حرارتها كانت مصدر انتعاش وحياة. وإن اشتد وهجها كانت مورد حتف وفناء. وأنها ضلال لمن يعبدها، وهدى لمن يعلم أنها آية من آيات الله، وأكثر ما يكون التناقض اللفظى فى الأحاجى والمعاياة كقول الحريرى.

والكاتبون وما خطت أناملهم سطرا ولا قرءوا ما خط فى الكتب

الكاتبون الذين يكتبون الدواب أى يربطونها. وقول حفنى ناصف بك:

ولابسة من الياقوت تاجا تقهقه لى إذا قبلت فاها

يريد النارجيلة (الشيشة) وليس لها من الياقوت تاج وإنما على رأسها جَذْوة[1] من نار. وليست تقهقه، ولكنها تبقبق. ومنه أيضا قوله بعضهم:

---

(١) شررة

إنى رأيت غزالا أورث قلبى خبالا
قد صار كلبا وقردا وصار بعد غزالا

صار هنا بمعنى ضم . قال تعالى : (فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك) .

وقول آخر ملغزا فى عدة أشياء(ا) :

ورب ثور(١) رأيت فى جحر نمل وقطاة(٢) تحمل الأثقالا
ونسور(٣) تمشى بغير رءوس لا ولا ريش تحمل الأبطالا
وعجوزا(٤) رأيت فى بطن كلب جعل الكلب للأمير حمالا
وأتانا(٥) رأيت واردة الما ء زمانا ولا تذوق بلالا
وعقابا(٦) تطير من غير ريش وعقابا(٧) مقيمة أحوالا

(١) الثور النمل الذى يخرج التراب من الجحر العظيم .

(٢) والقطاة موضع الرديف من الفرس . (٣) والنسور بطون الحوافر .
(٤) والعجوز السيف . وبطن الكلب جلد يصنع منه غمد السيف . (٥) والأتان الصخرة . (٦) والعقاب الأولى التي تطير بغير ريش: البكرة. (٧) والعقاب المقيمة أحوالا: اللواء .

وقولهم : ماشىء لا ينطق إلا إذا شج رأسه وقطع لسانه ، وقد نظمته فقلت:

وأخرس لا يسيغ النطق إلا بشج الرأس مع قطع اللسان

هو القلم لا يكتب إلا اذا شق وقط .

الدور البلاغى

من محدثات المتأخرين مايصح أن نسميه الدور البلاغى لأنه يشبه الدور المنطقى لفظا وإن كانت الجهة منفكة معنى ؛ لأن الدور الحقيقى محال ، وهو أن يتوقف كل من الشيئين على الآخر كأن يكون الابن والدا لأبيه . فمن أمثلة الدور البلاغى قول ابن الفارض :

(ا) ومنه قول الشاعر :

لا تأمنن فزاريا مررت به على قلوصك واكتبها بأسيار

فطوفان نوح عند نوحى كأدمعى وإيقاد نيران الخليل كلوعتى
فلولا زفيرى أغرقتنى مدامعى ولولا دموعى أحرقتنى زفرتى

يخيل للسامع أن الإغراق والإحراق ينفى كل منهما الآخر، مع أن السنن الطبيعى يحتم أن الماء متى باشر النار أطفأها ولا تنال منه شيئا. ولو نظرنا إلى الواقع لم نجد اتصالا بين لهيب الشوق وبين سيل الدمع، لأن الجوى بين الضلوع. وليس متصلا بالمآقى منبع الدموع، وعدم الاتصال الحقيقى هو الذى سوغ للشاعر أن يحكم بأن نار الحب حالت دون إغراقه بالدموع لأنها تبخرها عن كثب مثل ماتبخر نار الموقد ماء القدر، كما أن الدمع يطفىء من نار الوجد، ويشفى من لوعة الجوى، كما قال الحريرى:

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا بكاها فقلت: الفضل للمتقدم

وللعامة أمثال من هذا القبيل كقولهم للحدأة. مالك تخطفين؟ قالت من جوعى. قيل لها ومالك جائعة؟ قالت من خطفى. يوهم هذا المثل أن كلا من الجوع والخطف يتوقف أحدهما على الآخر وهو محال. والحقيقة أن الخطف مسبب عن الجوع، وأن الجوع ليس مسببا عن الخطف، بل الذى يتسبب عنه الشبع، ولكن الجوع يتسبب عنه فى النهاية حينما يعلم الناس طبع الحدأة فى السلب والنهب، فيحترسون منها، ويطاردونها أينما وجدت.

وما أشد انطباق هذا المثل على الأمم التى دأبها السطو على الأمم الضعيفة وسلب أراضيها بسبب مابها من الفقر والفاقة. فهى وإن أشبعت نهمها فى أول الأمر إلا أن عاقبتها الدمار والفقر المدقع حينما تبلغ الأمم المغلوبة رشدها، وتسترد أرضها. فيكون السلب والنهب سببا لما تعانيه من الذل والجوع والمهانة فى نهاية الأمر.

التسلسل

من فنون الأدب التسلسل (١) ، وموقعه من النفس عميق ؛ لما فيه من سلاسة اللفظ ، وأخذ المعانى بعضها برقاب بعض كالقطار الذى تتابعت عرباته ، وتلاحقت عجلاته .

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : «عليكم بالصدق فإنه يهدى إلى البر، والبر يهدى إلى الجنة . وإياكم والكذب فإنه يهدى إلى الفجور ، والفجور يهدى إلى النار» .

وقوله «: إن الله اصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار» .وقوله أيضا : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن اسحاق بن يعقوب بن ابراهيم».

ومنه قول أمير الشعراء :

نظرة فابتسامة فسلام   فكلام فموعد فلقاء

فانظر مالهذا الضرب من الروعة وارتباط الأسباب بمسبباتها ، ومنه أيضا قول قس بن ساعدة : «أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، فإذا وعيتم فاحفظوا ، وإذا حفظتم فقولوا ، وإذا قلتم فاصدقوا . من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ماهو آت آت » .

ولم يخل القرآن الكريم من هذا النوع ففيه آيات كثيرة منه كقوله تعالى: «ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ».وقوله أيضا : «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .

---

(١) التسلسل فى الأدب خلاف، فى المنطق إذ التسلسل عند المناطقة محال وهو ألا يكون لسلسلة الموجودات خلاف الخالق بداية ولا نهاية .

التجانس

هو أعم من التجنيس المسمى بالجناس من جهة أن التجنيس يشترط فيه أن يتفق اللفظان فى جميع الحروف أو بعضها ويختلف المعنى ، أما التجانس فلا يشترط فيه ذلك ، فقد يتفق فيه اللفظ والمعنى ، ويختص التجانس بأن يكون فى آخر البيت وأول مابعده ، وأن يكون الجناس فيه تاما كقول الأستاذ المرحوم محمد شريف بك من قصيدة يتغزل فيها بفتاة باريس حيث يقول :

إلى طالب المجد الأثيل أسير   وقلبي عند الغانيات أسـير

أسير إلى حور القصور فأجتلى   شموسا وكاسات الشموس تدور

تدور بها هيفاء يجرح لحظها   وقد غاب عنها حشمة ونفور

تبيت تعاطينى بكأس وتارة   بشهد رضاب فاح منه عبير

محمد على الدسوقى

أسلوب المبرّد فى كامله

بقلم

السباعى بيومى

الأستاذ بدار العلوم[1]

إذا كان الأسلوب معناه فى اللغة الطريق، كان الذى يقتضينا إياه هذا العنوان فى أبسط معانيه ليس إلا الكلام على طريقة أبى العباس المبرد فى تصنيف كامله، وتلك الطريقة تقتضينا من وجهة أخرى أن نتكلم عليها من ناحيتين مختلفتين، فأما إحداهما فهى الأصول التى وقع عليها اختيار أبى العباس من مأثور الأدب لتكون مادة كتابه، وأما الأخرى فهى ما أضفاه عليها من شروح وتعليقات، ولنا بعد هاتين كلمة عن النظام الذى سلك فيه تلك الأصول من تقسيم وتبويب، ومن هنا تكون عناصر موضوعنا ثلاثة لاغير:

العنصر الأول

المادة التى وقع عليها اختيار أبى العباس

قال أبو العباس فى خطبته الوجيزة التى صدر بها كتابه تبيانا لتلك المادة، مانصه: «هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبا من الآداب مابين كلام منثور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة».

فأبان رحمه الله بأول عبارته أن أصول كتابه جاء منها الكلام المنثور كما جاء منها الشعر المرصوف، فلم تك نثرية فحسب ولا شعرية فحسب، ولو اقتصر على ذلك دون مابعده لكانت فيه الكفاية كل الكفاية، إنما أراد أن يخص

---

(١) هذا المقال خلاصة لمحاضرة ألقاها الأستاذ منذ أيام بمدرج على مبارك باشا الكبير بدار العلوم.

بالذكر من باب التفصيل بعد الإجمال ماجاء فى عيون النثر وحده من خطبة شريفة ورسالة بليغة ثم فى عيونه كذلك أو عيون الشعر معه من مثل سائر وموعظة بالغة .

والحق أن أبا العباس لم يقصر فى كتابه عما اعتزمه فى خطبته ، وربما كان الحق أنه ألف هذه الخطبة بعد تأليفه الكتاب كما يدل على ذلك قوله آنفا « هذا كتاب ألفناه » فجاءت مطابقة لما وقع فيه ، وإنما صدرنا جملتنا هذه بالحرف « ربما » ولم نسقها سوق الجازمين لقوله بعد « والنية أن نفسر كل ماوقع فى هذا الكتاب » ، على أنا بين هذين الأمرين المتخالفين يمكننا أن نتخير طريقا وسطا لعله الذى كان فنقول « إن أبا العباس اختار أصول كتابه من منثور ومنظوم ، وبعدئذ صاغ خطبته وفيها أخبر عما اختار ثم تعهد بما أراد أن يثبت من شروح وتعليقات على النحو الذى أراد » ، وليس يفوتنا أن نثبت هنا على أبى العباس عدم إشادته بكثير من فنون الشعر التى اختارها كما أشاد بأنواع النثر ، فى حين أن مااختار من فنون الشعر جاء أكثر كمية مما اختار للنثر كما سيتضح بعد .

آن بعد هذا الإجمال أن نبين مااختار أبو العباس فى كل من أدبى المنثور والمنظوم .

فأما أدب المنثور : فقد اختار فيه من الخطب والوصايا وما إليها من المواعظ والأدعيات نحو الخمسة والخمسين ، ومن الكتب والعهود والرسائل نحو الأربعين ومعها عدد ليس بالقليل من التوقيعات ، ثم من الحكم والأمثال وما إليهما من جوامع الكلم ماينيف على المائة والخمسين ، وليس بعد هذه الأنواع الثلاثة للأدب المنثور من أصول ، اللهم إلا ما اصطلح عليه الأدباء من عدهم التاريخ من الأدب فى الصميم ، ولذلك لم يكن لأبى العباس الأديب أن يخلى كامله — وقد حدث أنه يجمع ضروبا من الآداب — من النوادر والحوادث

والأخبار ، فألم فيه بطائفة تاريخية فى النواحى التى ذكرنا ، جاءت فى نوعها كثيرة الفروع ،فهى تفيض فى ذكر الخوارج إفاضة باسقة الطول وتذكر الكثير عن الموالى والشعراء والمغنين والأجواد والقضاة والجازعين والمتجلدين وتكاذيب الأعراب إلى غير ذلك من متفرقات الأخبار منذ العهد الجاهلى إلى الصدر من دولة بنى العباس وقد بلغت مفردات هذا الباب نحو الأربعمائة .

وأما أدب المنظوم فإن أبا العباس لم يترك منه فنا دون اختيار ذى جودة وجمال ، فقد اختار من التشبيهات وما يتصل بها من الأوصاف أكثر من مائة وستين ، واختار من الغزل قصائد ومقطعات نحو الثمانين ، واختار من الحماسة والفخريات نحو الأربعين مابين قصيدة ومقطعة ، واختار من المدائح والأهاجى والمعاتبات الممتع الكثير ، فقد تجاوزت نصوصه فيها المائتين ، واختار من المراثى بين قصيدة ومقطعة نحو السبعين ، ثم هو لم يغفل العظة والحكمة فى الشعر أن يختار منها فبلغت نصوصه فيها نحو المائة .

ومن هذا التفصيل نرى أن المادة التى اختارها أبو العباس أصولا لكامله قد بلغت نحو الثلثمائة بعد الألف ، نصفها إلا قليلا من النثر ونصفها وقليل من الشعر ، وهذا يدل فيه على جاه عريض فى الرواية ، وآخر أعرض منه فى حسن الاختيار .

هذا وليس يفوتنا ونحن نتكلم على المادة — التى اتخذها أبو العباس أصولا لكامله أن ننبه فى هذا الشأن على شىء جدير بالتنبيه ، ذلك أن أبا العباس لم يقصد إلى كل تلك الأصول قصدا فقد جاء الكثير منها على سبيل الاستطراد ، ويكفى أن نرتد على عدد الأصول التى ذكرناها فى النثر والشعر ، لنعقب على كل منها بعدد ماجاء فيه استطرادا ، تبيينا لهذه الكثرة التى كثيرا ماطغت على ماورد أصلا غير تبيع .

فنى النثر جاء المستطرد إليه فى الخطب خمس عشرة من خمسة وخمسين ،

وفى الرسائل ثلاثين من أربعين ، وفى الحكم سبعين من مائة وخمسين ، وفى الأخبار مائة وثمانين من أربعمائة . أما فى الشعر فقد جاء فى التشبيه ستين من مائة وستين ، وفى الغزل ستين من ثمانين ، وفى الحماسة ثلاثين من أربعين ، وفى المدائح والأهاجى مائة وخمسين من مائتين ، وفى المراثى خمسة وأربعين من سبعين ، وفى الحكمة أربعين من مائة ، ومن ذلك يرى أن المستطرد إليه قارب النصف فى النثر وأربى عليه فى الشعر ، وأنه فى مجموعهما قد زاد على النصف.

وإذا دلت هذه الظاهرة — ظاهرة الاستطراد — على ناحية ذات اعتبار فى أبى العباس، كانت تلك الناحية راجعة فيه إلى شيئين خليقين بالتقدير، أحدهما، سعة اطلاعه وغزارة ينبوعه فى كل تلك المناحى التى كون منها الكتاب ، والثانى ، سرعة خاطره وتداعى المعانى فى ذهنه إلى درجة تربط الشىء بأشياء ، وهذان هما السدى واللحمة لكل ما ترى فى الكامل من استطراد .

العنصر الثانى

ما كان لأبى العباس من شروح وتعليقات

قال أبو العباس من خطبته السالفة يعنى هذه الناحية ما نصه : —

« والنية أن نفسر كل ما وقع فى هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحا شافيا ، حتى يكون هذا الكتاب ، بنفسه مكتفيا ، وعن أن يرجع إلى أحد فى تفسيره مستغنيا ».

فأبان أنه سيعنى فيما أتى به من أصول ، بشرح المفردات الغريبة والمعانى المستغلقة كما يعنى بشرح ما يعرض فيه من الأعراب ، على أن يكون ذلك الشرح شافيا يجعل هذا الكتاب فى غنى عن أن يرجع قارئه إلى أحد فى تفسيره، وقد عنى فعلا بما قال أشد عناية، فلم يترك زيادة لمستزيد، وليس الذى نراه الآن بالكتاب من حاجة إلى مزيد ، إلا للفرق بين الجمهور فى عصرنا والجمهور الذى

ألف له أبو العباس . وهذى كلمة عن كل ظاهرة من تلكم الظواهر الثلاث ترينا كيف كان أبو العباس فذا فى هذا الباب.

١ — شرح المفردات الغريبة — جاءت عناية أبى العباس بشرح الغريب بالغة ذات كفاية وسعة وإمتاع ، فلم يكن يترك لفظه فى حاجة إلى كشف عن معناها أو معانيها حتى يلم بذلك إلماما واسع المدى واضعا يده على المعنى المراد فى السياق وضع اللبق الخبير ، وأحيانا كان يفيض فى الشروح اللغوية إفاضات بعيدة مابين الطرفين على نحو مايفعل رجال فقه اللغة فى التقليب والتدوير، ولقد أحصيت ماتصدى له على هذا النحو فى الكامل فإذا به يربى على المائة والأربعين مبحثا وإلى القارئ بعض أمثلة منها :—

تفسير مادة نضد . مادة سام . مادة بهر . مادة النفاق . الهوى والهواء . الجدا والجداء . أسماء الزق . أسماء السحاب . رعدوأرعد . صفات غير المستعد للحرب . أولاد درزة وابن فرتنى وبنو غبراء . فاظ وفاض . التمزين ومأخذ منه . معايب المنطق وأسماؤها . أنواع الماشية وصفات كل نوع . مادة شام . رَقِىَ ورَقَى ورَقَا .الخرابة والخارب . المها والمهاة . شرخ الشباب ومأخذه . الجذ والجد ، السنا والسناء . أسماء شجر القسى باعتبار منابته . باء وأباء . الروائم . الفارض والبكر والعوان . الهجين والمذرع . شط وأشط . عطا وأعطى . الكفء ومرادفاته الشجة وأسماؤها . معانى العق . أسماء الماء عذبا وملحا . المعانى الستة لكلمة الصدى . أدْلج وادّلج . سرى وأسرى . تنوع أسماء الأرض بتنوع صفاتها قرأ وأقرأ . غلا وأغلى . الظم، ومعناه . الكلام بتوسع على الرياح .

إلى غير ذلك مما لو عددناه لوصلنا أكثر من العدد الذى أوردناه .

٢ — شرح المعانى المستغلقة — لم يكن أبو العباس يقف عند شرح

المفردات، بالرغم من إفاضته فى شرحها، كما كان يقف أمثاله ومنهم القالى، مهما كانت تلق إفاضته ضوءا يكشف عن المراد من المعنى، إنما كان يتعرض لشرح التركيب فى ذاته بعبارة ذات دقة وإحكام وذات حلاوة وطلاوة، لأنه كان فوق لغويته، الأديب البارع والمحدث الممتع، ولعل هذه الناحية إحدى دلائل فضله على غيره وعلوه على من سواه، وكم كانت تظهر قدرته ويتضح نبوغه، حينما يكون فى المعنى خفاء يريد إظهاره أو عسر يريد تيسيره أو احتمال يريد توجيهه، حينذاك يجد القارىء مقدرة أى مقدرة، وتصرفا أبدع تصرف، وما على السامع إلا أن يفتح كامله ويقرأ من شروحه، حتى يجد الشواهد على ذلك تتوالى تباعا، ويندفع بعضها وراء بعض سراعا، فى قوة أخذ وجمال أداء، فإفاضة أدبه على هذه الناحية لم تكن أقل شأنا - إن لم تكن أرفع - من إفاضة لغويته على الناحية السابقة، على أننا معجبون بهذه الناحية أشد من تلك لأن الفائتة قد تكون نتيجة حفظ واستيعاب، وهذه لم تكن إلا نتيجة نضوج فى ملكة البيان واستكمال لأداة التعبير، وشتان ما بين الحالين.

٣ - شرح ما كان يعرض من إعراب - حينما أخذ أبو العباس على نفسه أن يشرح ما كان يعرض فى أصول كتابه من إعراب، لم يكن يقف بكلمة الإعراب عند حدها الضيق النحوى، إنما كان يرمى بها إلى أبعد ما تتسع له من معان، فكثيرا ما كان يعرض للتحليل الصرفى وللتوجيه البلاغى فى معان وبيان وبديع، بل كثيرا ما كان يعرض للعروض والقافية فى أدق ما يرميان إليه، وإذا عرفت أيها القارىء أنه كان إماما فى قواعد اللغة ذا مبادىء وآراء، أدركت القيمة لما كان يورده فيما يعرض له، وأدركت السبب فى أنه كان فى كثير من الأحيان يتوسع فيما يتصدى له من هذه الناحية توسعا كبيرا جعل كتابه مرجعا من مراجع اللغة فى قواعدها وكيفية التطبيق عليها، ولقد أحصيت هذه النواحي فألفيتها تنيف على المائة والخمسين موضعا وإليك بعضا منها :-

المنصوب على الاختصاص ، القلب المكانى . لو ولولا واستعمالهما . إبدال التاء من المعتل فى الافتعال وغيره . استعمال كلمة لا أبالك ووجوه إعرابها . كيف يكون النسب إلى المضاف والجمع . حكم فُعَل والمنقول عن الأعجمية فى المنع من الصرف . النعت بالمصدر . الكلام على لام الاستغاثة ولام الإضافة . الفرق بين أم وأو فى المعنى والاستعمال . ما يضاف إلى الأفعال من أسماء الزمان وغيرها . تخفيف المشدد فى الشعر . تحريك الساكن أو نقل حركة الإعراب عليه فى الشعر . التبادل بين المصدر واسمى الفاعل والمفعول فى الاستعمال . الاشتغال وأحكامه . الجملة المحكية . أبواب الثلاثى المجرد وضوابط كل باب . قلب الواو والياء ألفا . إعراب جمع المذكر السالم . ومايلحق به وكيفية النسب إليه . إبدال حروف الخفض بعضها من بعض . النعت المقطوع وشرحه . جزم المضارع أو رفعه فى جواب الشرط . الإسناد على سبيل المجاز . زيادة « إن » مغيرة للإعراب وزيادتها مؤكدة ثم زيادة « ما » كذلك ، الإضافة على سبيل المجاورة . استعمالات الواو . جمع فعال مؤنثا ومذكرا إعراب العلم وإعراب ابن بين علمين . المستثنى بإلا . مضعف الثلاثى وبابه . أن أو عدمها مع الأفعال الناقصة . واو الندبة . حذف واو المثال فى المضارع . مايجوز صرفه فى الشعر ومالا يجوز . جمع فاعل على فَعْل . تعدى اللازم . الصلة والموصول قلب الواو همزة . الحقيقة والكناية والمجاز ١٠ سم التفضيل على غير وجهه . تصغير الترخيم . ضروب البدل . اللف والنشر التشبيه بإفاضة بلغت عشرات الصفحات ؛ وهكذا إلى أكثر مما عددنا له آنفا . ولسنا ننسى أن نذكر من آيات الجمال فى هذه الناحية عذوبة العبارة التى كان يعالج بها أبو العباس تلك القواعد ، إلى درجة يستلذها القارىء ويمعن من أجلها فيها ، فإن تلك ميزة له على غيره من علماء النحو والصرف جميعا ، وكذا على علماء البلاغة إلا قليلا .

العنصر الثالث

النظام الذى سلك فيه أبو العباس أصول كتابه

قد أرانا أبو العباس فى خطبته أنواع المادة التى اختار منها أصول كتابه، وأرانا بعد ذلك المتجه الذى سيقصد إليه فيما يريد من شروح ، ولكنه لم يتعرض فى تلك الخطبة للنظام الذى سيسلك فيه تلك الأصول ، فلم يكن لدينا بد من تتبع ماسماه أبوابا لكتابه ، لعلنا نستشف منها ذلك النظام .

لقد تتبعت تلك الأبواب فوجدتها خمسة وخمسين بابا،ثم أخذت أتقصى ماعسى أن يكون أبو العباس قد قصد إليه فى نوع مايشتمل عليه كل باب وتنسيق هذا المشتمل بعضه مع بعض ، فلم أجده ذا اتجاه خاص إلا فى اثنى عشر بابا منها لاغير ، ثمانية حاد فيها عن إطلاق لفظ الباب عنوانا لها إطلاقا كما هى عادته ، فشفع تلك التسمية المطلقة ، وقيدها بما أزال إطلاقها ، فرأيناه يقول ، باب فى تكاذيب الأعراب ، باب فى التشبيه ، باب فى أخبار الخوارج، باب فى اختصار الخطب والتحميدات والمواعظ ، باب فى طرائف من مراثى المحدثين ، باب فى ذكر الأذواء من اليمن فى الإسلام ، باب فيمن كان بينه وبين الملائكة سبب من اليمانية ، وأخيرا يقول تنفيذا لوعد منه سابق «وهذه خطب ومواعظ ورسائل»

فتلكم هى الأبواب الثمانية

أما الأربعة الباقية من الاثنى عشر ، فقد ترك لفظ الباب عنوانا مطلقا عليها ، ولكنه ابتدأها بعبارات تشعر بما قصد إليه فيها ، فتراه يقول فى أحدها «من كلام العرب الاختصار المفهم والإطناب المفخم الخ . . » ويقول فى الثانى «وهذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين حكيمة مستحسنة الخ ».

ويقول فى الثالث « وهذه طرائف من حسن الكلام وجيد الشعر وسائر الأمثال ومأثور الأخبار » ثم يقول فى الرابع « وهذا باب نذكر فيه من كل شىء شيئا الخ .. ».

أما باقى الأبواب وهى ثلاثة وأربعون بابا فلم ينبه أبو العباس على ما أراد فيها من نظام ، وإن كانت ثمانية منها جاءت متحدة المشتملات ، لا ندرى عن قصد أم رمية من غير رام ، ولكننى مرجح أنها جاءت كذلك صدفة جرت إليها شئون الحديث وانتهت قبل أن تتغاير هذه الشئون . وعلى إخراج هذه الأبواب الثمانية من الحساب يكون عدد الأبواب التى جاءت لا نظام لها ولا تنسيق خمسة وثلاثين بابا من خمسة وخمسين جملة أبواب الكتاب ، على أن نظرة إلى ما ذكرنا عن الأبواب الأربعة التى صدرها بجمل تفهم ما قصد إليه منها ، نجد أن هذا المقصود لم يك إلى جهة خاصة من فنون الآداب، وإنما كان عاما تربط بين بعض أجزاء كل باب وبعض رابطة عامة كذلك ، ومن ثم يسوغ لنا أن نسلكها مع الخمسة والثلاثين ، فيكون مجموع الأبواب غير المنظمة تسعة وثلاثين بابا ، وهى كثرة غالبة على عدد أبواب الكتاب كما أنها غالبة عليه كمية ومقدارا .

وبعـــد

فلهذا الأحسان المعدوم النظير من أبى العباس فى العنصرين الأولين ، ثم لهذا النظام الذى كان سوءه عقبة كأداء فى طريق الاستفادة من الكتاب كما ذكرنا فى العنصر الأخير ، وبخاصة حيث لا أثر للفهارس فيه ، أقول لهذين الأمرين معا عمدت بعد كثرة مطالعاتى للكامل وشدة إغرامى به إلى أن أعرضه لقراء الأدب فى صورة جديدة تتفق مع ما يتطلبه العصر الحاضر من الحرص على الزمن وتسهيل الاستفادة، مع الإبقاء على المزايا القديمة فيه ، تلكم الصورة هى

كتابى المسمى « تهذيب الكامل » ذو الفهارس الزائدة على مائة صفحة ولعلى أجد فرصة ثانية أتحدث فيها عن هذا التهذيب ، لا من حيث إخراجى إياه ، بل من حيث إنه أحد الأدلة المادية على ما يتقبله بعض تراثنا الأدبى النفيس من قبول واسع لأيدى الاصلاح .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

السباعى بيومى
أستاذ بدار العلوم

فتنة خلق القرآن

للأستاذ أحمد زكى صفوت

كانت المعتزلة تقول بنفى صفات المعانى عن الله تعالى — ومنها الكلام — لأن إثباتها يؤدى إلى التشبيه وإلى تعدد القديم، وذلك ينافى التوحيد، وكان من النتائج اللازمة لذلك أن قالوا بأن القرآن كلام الله مخلوق، قال صاحب المواقف[١] « قالت المعتزلة: كلامه تعالى أصوات وحروف، لكنها ليست قائمة بذاته، بل يخلقها الله فى غيره كاللوح المحفوظ، أو جبريل، أو النبى، وهو حادث ».

وليست المعتزلة أول من قال بخلق القرآن — كما أنهم ليسوا أول من أنكر الصفات — بل إن أول من عرف بالقول بخلقه الجعد بن درهم بدمشق، (وهو مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية) وأخذ عنه ذلك القول جهم بن صفوان الترمذى زعيم فرقة الجهمية الجبرية فقال بخلقه[٢]، إذ أن الجهمية تنكر الصفات.

وذكروا أن بشر بن غياث المَرِيسىّ — وهو زعيم المريسية من فرق المرجئة — قال أيضا بخلق القرآن فى عصر الرشيد، ونهاه أبو يوسف عن ذلك فلم ينته، فهجره وطرده من مجلسه، وقال: لاتنتهى أو تفسد خشبة (يريد الصلب) ولما بلغ ذلك الرشيد قال: علىّ إن أظفرنى الله به أن أقتله؟، وظل بشر مختفيا طول خلافة الرشيد، ولم يظفر به مع شدة طلبه له[٣].

---

(١) المواقف ج ٨ : ص ٩٢ (٢) سرح العيون ص ٢٠٣ (٣) وفيات الأعيان ج ١ : ص ٩١ وتبيين كذب المفترى ص ٣٤٥ والفرق بين الفرق ص ١٩٢

وذكروا أيضا أن حفصا الفرد — وهو من أكابر المجبرة — قال بذلك القول، وأن الشافعي ناظره وكفّره .[1]

وكان الناس في تلك المسألة في عصر الرشيد بين أخذ وترك حتى ولي المأمون فقال بخلق القرآن، وكان من أشد نصراء الاعتزال، وقد أظهر ذلك القول سنة ٢١٢ هـ، وبقي يقدم رجلا ويؤخر أخرى في دعوة الناس إلى مذهبه حتى قوي عزمه في السنة التي مات فيها (سنة ٢١٨ هـ) فحماهم على القول بخلقه، وكل من لم يقل به عاقبه أشد عقوبة .[2]

ذكر الطبري أنه شخص من مدينة السلام سنة ٢١٥ هـ لغزو الروم، واستخلف عليها حين رحل عنها إسحق بن إبراهيم بن مصعب، ثم كتب وهو بالرقة إلى نائبه ببغداد سنة ٢١٨ هـ كتابا في امتحان القضاة والمحدّثين في ذلك، وأمر بإشخاص جماعة منهم إليه بالرقة، وكان ذلك أول كتاب كتب في ذلك، ونسخة كتابه إليه :

— « أما بعد، فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم، الاجتهادُ في إقامة دين الله الذي استحفظهم، ومواريث النبوّة التي أورثهم، وأثر العلم الذي استودعهم، والعملُ بالحق في رعيتهم، والتشمير لطاعة الله فيهم، والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته[3]، والإقساطِ فيما ولاّه الله من رعيته برحمته ومِنّته .

وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم، والسواد الأكبر، من حشو الرعية، وسفلة العامّة، ممن لا نظر له ولا روّية، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق — أهلُ جهالة بالله، وعمًى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان

---

(١) تبيين كذب المفترى ص ٣٣٩ (٢) تاريخ الطبرى ج ١٠ : ص ٢٧٩ وحياة الحيوان الكبرى للدميرى ج ١ : ص ١١٤ ، ١١٥ (٣) الصريمة : العزيمة وقطع الأمر ، والاقساط : العدل.

به ، ونُكوب [١] عن واضحات أعلامه ، وواجب سبيله ، وقُصُور أن يَقدُروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرّقوا بينه وبين خلقه ، لضعف آرائهم ، ونقص عقولهم ، وجفائهم عن التفكر والتذكّر ، وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا [٢] مجتمعين ، واتفقوا غير متعاجمين ، على أنه قديم أول ، لم يخلقه الله ويُحدِثه ويخترعه ، وقد قال الله عز وجل « إنا جعلناه قرآنا عربيا » فكل ماجعله الله فقد خلقه ، وقال : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور » وقال عز وجل : « كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق » فأخبر أنه قَصَصُ لأمور أحدثه بعدها ، وتلا به متقدّمها ، وقال : « الر كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير » وكل مُحكَم مفصّل ، فله مُحكِمٌ مفصِّل ، والله مُحكِمُ كتابه ومفصِّله ، فهو خالقه ومبتدعه .

ثم هم الذين جادلوا بالباطل ، فدَعوا إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى السُّنّة ، وفى كل فصل من كتاب الله قَصَص من تلاوته ، مُبْطِل قولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونحلتهم [٣] . ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس ، وغروا به الجهال ، حتى مال قوم من أهل السَّمْت [٤] الكاذب ، والتخشع لغير الله ، والتقشف لغير الدين ، إلى موافقتهم عليه ، ومواطأتهم على سَيِّء آرائهم ، — تزّينا بذلك عندهم ، وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم ، فتركوا الحق إلى باطلهم ، واتخذوا دون الله وليجة [٥] إلى ضلالتهم ، فقُبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم ، ونفذت أحكام الكتاب بهم على على دغل [٦] دينهم ونغل أديمهم ، وفساد نياتهم ويقينهم ، وكان ذلك غايتهم التى

(١) أى عدول (٢) أطبق القوم على الأمر : أجمعوا (٣) النحلة : الدعوى . (٤) السمت : هيئة أهل الخير (٥) الوليجة : خاصتك ، أو من تتخذه معتمدا عليه من غير أهلك (٦) الدغل : الفساد ، ونغل الأديم كفرح : فسد فى الدباغ

ليها جروا ، وإياها طلبوا فى متابعتهم . والكذب على مولاهم ، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ، أولئك الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟

فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ، ورءوس الضلالة ، المنقوصون من التوحيد حظا ، والمخسوسون[١] من الإيمان نصيبا ، وأوعية الجهالة ، وأعلام الكذب ، ولسان إبليس الناطق فى أوليائه ، والهائل على أعدائه من أهل دين الله ، وأحق من يُتَّهم فى صدقه ، وتطرح شهادته ، ولا يوثق بقوله ولا عمله ، فإنه لا عمل إلا بعد يقين ، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام ، وإخلاص التوحيد ، ومن عمى عن رشده وحظه من الإيمان بالله وبتوحيده ، كان عما سوى ذلك من عمله والقَصْد فى شهادته — أعمى وأضلَّ سبيلا ، ولعمْرُ أمير المؤمنين إن أجْحَى[٢] الناس بالكذب فى قوله ، وتخرص الباطل فى شهادته ، من كذب على الله ووحيه ، ولم يعرف الله حقيقةَ معرفته ، وإن أولاهم بردِّ شهادته فى حكم الله ودينه ، مَن ردَّ شهادةَ الله على كتابه وبهت[٣] حق الله بباطله .

فاجمَعْ من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فابْدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن وإحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ، ولا واثق فيما قلَّده الله واستحفظه من أمور رعيته ، بمن لا يوثق بدينه ، وخلوص توحيده ويقينه ، فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة ، فمرهم بنَصِّ[٤] من يحضرهم من الشهود على الناس ،

[١] خس نصيبه : جعله خسيسا دنيئا حقيرا (٢) أى أجدرهم ، يقال : هو حجى به كغنى ، وحج ككتف وحجى كغنى : أى جدير (٣) بهته كمنع : قذفه بالباطل وافترى عليه الكذب (٤) نصه : استقصى مسألته عن الشيء .

ومسألتهم عن علمهم فى القرآن ، وترك إثبات شهادة من لم يُقرَّ أنه مخلوق محدث ، ولم يَره ، والامتناع من توقيعها عنده ، وا كتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسألتهم . والأمرِ لهم بمثل ذلك ، ثم أشرف عليهم وتفقَّدْ آثارهم ، حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر فى الدين والإخلاص للتوحيد ، وا كتب إلى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك إن شاء الله » .

وكتب فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ هـ .

وكتب المأمون إلى إسحق بن إبراهيم فى إشخاص سبعة نفر ، فأشخصوا إليه ، فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن ، فأجابوا جميعا : إن القرآن مخلوق ، فأشخصهم إلى مدينة السلام ، وأحضرهم إسحقُ بن إبراهيم دارَه ، فشهَّر أمرهم وقولهم ، بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث ، فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون ، فخلّى سبيلهم ، وكان ما فعل من ذلك إسحق بن إبراهيم بأمر المأمون [١] .

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحق بن إبراهيم :

« أما بعد ، فإن من حق الله على خلفائه فى أرضه ، وأمنائه على عباده الذين ارتضاهم لإقامة دينه ، وحمَّلهم رعاية خَلقه ، وإمضاءَ حُكمه و سننه ، والائتمامَ بعدله فى بريته ، أن يُجهدوا لله أنفسهم ، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم ، ويدُلّوا عليه تبارك اسمه وتعالى ، بفضل العلم الذى أودعهم ، والمعرفةِ التى جعلها فيهم ، ويَهدُوا إليه من زاغ عنه ، ويردُّوا مَن أدبر عن أمره ، وينهجوا لرعاياهم سَمْت [٢] نجاتهم ، ويقفوهم على حدود إيمانهم ، وسبيل فوزهم وعصمتهم ، ويكشفوا لهم عن مغطّيات أمورهم ومشتبهاتِها عليهم ، بما يدفعون الريبَ عنهم ، ويعود بالضياء والبيِّنة على كافتهم ، وأن يُؤْثِروا

[١] كتاب بغداد ج ٦ : ص ٣٣٨ وتاريخ الطبرى ج ١٠ : ص ٢٨٤ (٢) السمت : الطريق

ذلك من إرشادهم وتبصيرهم، إذ كان جامعا لفنون مَصَانِعهم، ومنتظما لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم، ويتذكروا ما الله مُرْصِدُه (١) من مساءلتهم عما حُمِّلوه، ومجازاتِهم بما أسلفوه وقدَّموا عنده، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحده، وحسبه الله وكفى به.

ومما بيَّنه أمير المؤمنين برويّته، وطالعه بفكره، فتبيَّن عظيمَ خطره وجليلَ مايرجع فى الدين من وَكْفه (٢) وضرره، ماينال المسلمون بينهم من القول فى القرآن الذى جعله الله إماما لهم، وأثرا من رسول الله وصفيه محمد ﷺ باقيا لهم، واشتباهِه على كثير منهم، حتى حَسُن عندهم، وتزيَّن فى عقولهم ألاّ يكون مخلوقا فتعرّضوا بذلك لدفع خلقِ الله الذى بان به عن خلقه وتفرَّد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته، وإنشائها بقدرته، والتقدم عليها بأوّليته التى لا يبلغ أولاها، ولا يدرك مداها، وكان كل شىء دونه خلقا من خلقه، وحدثا هو المحدث له، وإن كان القرآن ناطقا به، ودالا عليه، وقاطعا للاختلاف فيه، وضاهوا به قول النصارى فى ادعائهم فى عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق، إذ كان كلمة الله، والله عزوجل يقول: « إنا جعلناه قرآنا عربيا » وتأويل ذلك إنا خلقناه. كما قال جل جلاله: « وجعل منها زوجها ليسكن إليها » وقال: وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا » « وجعلنا من الماء كل شىء حى » فسوّى عزوجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التى ذكرها فى شية (٣) الصنعة، وأخبر أنه جاعله، وحدّه فقال: « إنه لقرآن مجيد فى لوح محفوظ » فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن، ولا يحاط إلا بمخلوق، وقال لنبيه ﷺ « لاتحرك به لسانك لتعجل به » وقال: « مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث »

---

[١] أرصدله: أعد، وكافأه بالخير أو بالشر [٢] الوكف: العيب والاثم.

[٣] أى فى حسنها، من وشى الثوب كوعد وشيا وشية. أى نقشه وحسنه.

وقال : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته » وأخبر عن قوم ذمّهم بكذبهم أنهم قالوا : « ما أنزل الله على بشر من شيء » ثم أكذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله : « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى » فسمى الله تعالى القرآن قرآنا وذكرا وإيمانا ونورا وهدى ومباركا وعربيا وقصصا ، فقال : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن » وقال : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » وقال : « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » وقال : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » فجعل له أولا وآخرا ، ودل عليه أنه محدود مخلوق.

وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم فى القرآن ، الثلم[١] فى دينهم ، والجَرْحَ فى أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام ، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم ، حتى عرّفوا ووصفوا خَلْقَ الله وفِعْلَه بالصفة التى هى لله وحده ، وشبهوه به ، والأشباه أولى بخلقه ، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظا فى الدين ، ولا نصيبا من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يُحِلّ أحدا منهم محل الثقة فى أمانة ولا عَدالة ولا شهادة ، ولا صدقٍ فى قول ولا حكاية ، ولا تولية لشيء من أمر الرعية ، وإن ظهر قصد[٢] بعضهم وعرف بالسداد مسدد فيهم ، فإن الفروع مردودة إلى أصولها ، ومحمولة فى الحمد والذم عليها ، ومن كان جاهلا بأمر دينه الذى أمره الله به من وحدانيّته فهو بما سواه أعظم جهلا ، وعن الرشد فى غيره أعمى وأضلّ سبيلا ، فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحق القاضى كتابَ أمير المؤمنين بما كَتَبَ به إليك ، وانُصصْهما وعن علمهما فى القرآن ، وأعلِمْهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين إلا بمن وَثِق بإخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد لمن لم يُقِرّ بأن القرآن مخلوق ، فإن قالا بقول أمير المؤمنين فى ذلك فتقدَّمْ

---

[١] أى النقص ، من ثلم الاناء إذا كسر حرفه [٢] القصد : الاستقامة

إليهما فى امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق ، ونصِّهم عن قولهم فى القرآن ، فمن لم يقل منهم أنه مخلوق أبطلا شهادته ، ولم يقطعا حكما بقوله ، وإن ثبت عفافه بالقصد والسداد فى أمره ، وافعل ذلك بمن فى سائر عملك من القضاة ، وأشرف عليهم إشرافا يزيد الله به ذا البصيرة فى بصيرته ، ويمنع المرتاب من إغفال دينه ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك فى ذلك إن شاء الله »(١) .

فأحضر إسحاق بن ابراهيم جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين ، وقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين حتى فهموه ، ثم امتحنهم رجلا رجلا فتوقفوا عن الإقرار بخلق القرآن ، وكلهم يقول : « القرآن كلام الله » إلا نفرا منهم، وإليك بعض مادار فى مجلس الامتحان :

قال لبشر بن الوليد : ماتقول فى القرآن ؟ قال : قد عرّفت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة . قال : فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ماقد ترى ، فقال : أقول:القرآن كلام الله . قال : لم أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال : الله خالق كل شىء .قال:هل القرآن شىء؟قال : هو شىء.قال: فمخلوق.قال:ليس بخالق.قال: ليس أسألك عن هذا . أمخلوق هو؟ قال:ما أحسن غير ماقلت لك،وقد استعهدت أمير المؤمنين أن لا أتكلم فيه ، وليس عندى غير ماقلت لك ، فأخذ إسحق بن إبراهيم رقعة كانت بين يديه فقرأها عليه ووقفه عليها وفيها : « أشهد أن لا إله إلا الله أحدا فردا ، لم يكن قبله شىء ، ولا بعده شىء ، ولا يشبهه شىء من خلقه فى معنى من المعانى ، ولا وجه من الوجوه » قال : نعم ، وقد كنت أضرب الناس على دون هذا . فقال للكاتب : اكتب ماقال ، ثم قال لعلى بن أبى مقاتل : ماتقول ياعلى؟ قال : قد سمّعت كلامى لأمير المؤمنين فى هذا غير

---

(١) كتاب بغداد ج ٦ : ص ٣٤٤ وتاريخ الطبرى ج ١٠ : ص ٢٨٦ .

مرة ، وماعندى غير ماسمع ، فامتحنه بالرقعة فأقر بما فيها ، ثم قال له : القرآن مخلوق ؟ قال : القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا . قال : هو كلام الله، وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا ، فقال للكاتب : اكتب مقالته .

وسأل أحمد بن حنبل فقال له : ماتقول فى القرآن ؟ قال : هو كلام الله ، قال : أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله . لاأزيد عليها . فامتحنه بما فى الرقعة، فلما أتى إلى « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » وأمسك عن « لايشبهه شيء من خلقه فى معنى من المعانى ولا وجه من الوجوه» قال له اسحق : مامعنى قوله : سميع بصير . قال : هو كما وصف نفسه ؟ قال : فما معناه ؟ قال :لاأدرى، هو كما وصف نفسه .

وسأل ابن البكاء الأكبر ، فأجاب : القرآن مجعول لقول الله تعالى : « إنا جعلناه قرآنا عربيا » والقرآن محدث لقوله : « مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث » قال له إسحق : فالمجعول مخلوق ، قال : لاأقول مخلوق ، ولكنه مجعول . فكتب مقالته .

وكتب مقالة القوم رجلا رجلا ، ووجه بها إلى المأمون ، فمكث القوم تسعة أيام ، ثم دعا بهم .

« يتبع »

أحمد زكى صفوت

العقـــــد الفريد

تعريف بالكتاب ومصادره

بقـلم

الأستاذ محمد سعيد العريان

هذه مقدمة كتاب العقد الذى تقوم بطبعه المكتبة التجارية الآن، وقد أتمت أكثره وسيظهر قريبا.

يُعَدُّ كتاب «العقد» لابن عبد ربه من أقدم ما وصل إلينا من كتب الأخبار والنوادر، لم يسبقه إلى هذا الباب فيما نعرف إلا ثلاثة نفر: الجاحظ صاحب البيان والتبيين، سنة ٢٥٥ هـ، وابن قتيبة صاحب عيون الأخبار، سنة ٢٧٦ هـ، والمبرّد صاحب الكامل، سنة ٢٨٥ هـ.

على أن ابن عبد ربه وإن كان مسبوقا إلى التأليف فى هذا الباب، قد اجتمع له فى هذا الكتاب ما لم يجتمع مثله فى كتاب قبله ولا بعده من كتب هذا الفن فكان بذلك حقيقا بالمنزلة العليّة التى أحله إياها أدباءُ العربية، إذ كان مصدرا من أهم مصادر التاريخ الأدبى التى يُعوّل عليها ويُستند إليها، بحيث لا يُغنى غناءه كتاب فى المكتبة العربية على غناها وما احتشد فيها من تراث أدباء العرب.

والحق أن هذا الكتاب هو موسوعة أدبية عامة، يوشك مَن ينظر فيه أن يجزم بأنه لم يغادر شيئاً مما يهم الباحث فى «علم العرب» إلا عَرَض له، وأعنى «بعلم العرب» مجموعة المعارف العامة فى الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع التى تتكوّن منها عناصرُ الثقافة العربية العامة لعهدِ مؤلف هذا الكتاب، وحتى الفروع التى انشعبتْ من علم العرب قريبا من ذلك التاريخ واختصت بالبحث فى «علوم الدين» ثم تميّزتْ باستقلالها — لا يَعدَم

الباحث أن يجد فروعا من مسائلها قد عرض لها صاحبُ العقد فى أبواب متفرقة من كتابه ، لعله لا يجد لكثير منها نظائر فى كثير من الكتب الخالصة للبحث فى هذه العلوم .

وثمة فضلٌ آخر يميز صاحب العقد على سابقيه ممن عرضوا لهذا الباب ، هو أن ابن عبد ربه أندلسىٌّ من أهل الجزيرة يتحدث عن أدب المشارقة فلا تقصّر مغربيَّتُه عن اللحاق والسبق ، ولعل هذا كان بعض دواعى ابن عبد ربه إلى تأليف كتابه ، إذ كان فى طبعه من المنافسة وحب الغَلَب ما يحفزه إلى هذا المضمار ، كما سنذكره بعد .

وليس بى من حاجة إلى الحديث عن نهج صاحب العقد فى تأليف كتابه فقد تكفل هو بتبيان ذلك فى مقدّمة الكتاب ، ولكن الذى يعنينى أن أذكره هنا ، هو أن ذلك النهج الذى سلكه مسبوقا إليه وسلكه كذلك مَن بعده ، كان يستند إلى قاعدة مقرَّرة فى « علم الأدب » كما عرفه القدماء . انظر إلى ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ يقول فى مقدمة تاريخه : « هذا العلم — يعنى علم الأدب — لا موضوع له ينظر فى إثبات عوارضه أو نفيها ، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته ، وهى الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم . فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالى الطبقة ، وسجع متساو فى الإجادة ، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة فى أثناء ذلك متفرقة ، يستقرى منها الناظر فى الغالب معظم قوانين العربية ، مع ذكر بعض من أيام العرب ، ليفهم به ما يقع فى أشعارهم منها ، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة ، والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شىء من كلام العرب وأساليبهم ومناحى بلاغتهم إذا تصفحه ....

ثم إنهم إذا أرادوا حدَّ هذا الفن قالوا : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذُ من كل علم بطرف » .

هذا الحد الذى ذكره ابن خلدون فى تعريف علم الأدب ، كان معروفا لكل المشتغلين بالأدب فى عهد ابن خلدون ، وعليه كان نهج المؤلفين قبل ابن عبد ربه و بعده : يجمعون من أشعار العرب وأخبارها ، ويأخذون من كل علم بطرف ؛ ليكون من ذلك سبيل إلى تحصيل الملكة ، وإلى الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ، وإذا كان ابن عبد ربه لم يقصد من كتابه إلى أكثر من هذا المعنى ، فقد كان ذلك نهجه فى تصنيف كتابه والحشْد له والتفنُّن فيما ينقل ويختار من أشعار العرب وأخبارها ، ومن أطراف كل علم وطرائفه .

ولقد وفق ابن عبد ربه فيما جمع لكتابه من فنون الاخبار ورعتهُ العناية رعاية هيأت لكتابه الخلود والذكر ، فإن كثيراً مما اجتمع له فى هذا الكتاب قد عصفت الأيام بمصادره الأولى فدرست آثارُها وضاعت فيما ضاع من تراث المكتبة العربية وآثار الكتاب العرب ، وبقى العقدُ خلفاً منها لا غناء عنه ولا بديل منه ، يرجع إليه الأديب والمؤرخ واللغوى والنحوى والعروضى وصاحب الأخبار والقصص ، فيجد كلٌّ طلبته وغرضه ، ولا يستغنى عنه غير هؤلاء من طلاب النوادر والطرف فى باب الطعام والشراب والغناء والنساء والحرب والسياسة والاجتماع ومجالس الأمراء ومحاورات الرؤساء ، وغير ذلك مما لا يستوعبه الحصر ولا يبلغه الإحصاء .

* * *

على أن ابن عبد ربه لم ينظر فيما جمع لكتابه من الفنون نظر المختص ، بحيث يختار ما يختار لكل فرع من فروع المعرفة بعد نقد وتمحيص واختبار فلا يقع منه فى باب من أبواب الفن إلا ما يجتمع عليه صواب الرأى عند أهله . لا ، ولكنه نظر إلى جملة ما جمع نظر الأديب الذى يروى النادرة لحلاوة موقعها ، لا لصحة الرأى فيها ، ويختار الخبر لتمام معناه لا لصواب موقعه عند أهل الرأى والنظر

والاختصاص ؛ انظر إليه فيما رَوى من حديث الرسول ﷺ مثلاً ، تجد الصحيح والمردود والضعيف والمتواتر والموضوع ؛ واقرأ له ما نَقَل من حوادث التاريخ وأخبار الأمم والملوك ، تجد منه ما تَعرِف وما تُنكر ، وما تصدِّق وما تكذِّب ، وما يتناقض آخره وأوَّله ؛ ولم يكن ابن عبد ربِّه من الغفلة بحيث يجوز عليه ما لا يجوز ، ولكنه جامعُ أخبار ومؤلِّف نوادر ، جمع ما جمع وأَلَّف ما أَلَّف ، ولكل ناظرٍ فى الكتاب بعدُ ما يأخذ وما يدع ؛ ذلك كان شأنه وشأن المؤلِّفين فى هذا الفن من قبله ومن بعده ، على حدود متعارفة بينهم ورسوم موضوعة . على أن ذلك لا يَعنى أن ما جَمَع من مثل تلك الأحاديثِ وهذه الأخبار ليس له مغزاه عند أهل الاختصاص والفن ، ولكنها أشياء للاستدلال لا للدليل ، كما يقول أصحابُ المنطق .

***

ذلك هو موجز الرأى فى التعريف بهذا الكتاب وقيمتِه فيما عَرض له من أبواب العلم والأدب ، وبقى علينا أن نعرف المصادر التى استند إليها ابن عبد ربه من الكتب والرواة .

يقول ابن عبد ربه فى مقدمته : « وقد ألفت هذا الكتاب ، وتخيّرتُ جواهره من متخيّر جواهر الأدب ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب ، وإنما لى فيه تاليف الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرش لصدر كل كتاب ؛ وما سواه فمأخوذٌ من أفواه العلماء ، ومأثورٌ عن الحكماء والأدباء . . . »

وهذا الذى يقوله المؤلف فى وصف كتابه ، يدعونا إلى السؤال : مِن أين اختار ابن عبد ربه مختاراته ؟ وما هى مصادره الأولى ؟ . . انظر إليه تجده يروى عن الشيبانى ، والمدائنى ، والأصمعى ، وأبى عبيدة ، والعتبى ، والشعبى ، والسجستانى ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، والمبرد ، والرياشى ، والزيادى ، وابن

سلام ، وابن الكلبي ، وغيرهم من علماء المشارقة ؛ وعن الخشني ، وابن وضاح ، وبقي بن مخلد ، من علماء الأندلس ؛ فأي هؤلاء لقي ابنُ عبد ربه فأخذ عنهم شفةً إلى شفة ، وأيّهم نَقل إليه من أخباره راويةٌ عن راوية ؟ . .

لم يَعرِض أحدٌ ممن ترجموا لابن عبد ربه — للحديث عن رحلة له إلى المشرق ، إلا فروضاً نظرية استنبطها بعض المتأخرين لدلائل يستند إليها في كتاب « العقد » ولانراها تصلح للاستدلال ؛ فلم يبقَ إلا أن صاحب العقد قد رَوَى من أخبار المشارقة ما نُقل إليه حيث هو في مَقامه من قرطبة ، ولم يعبر البحر ولم يركب الصحراء ؛ وقد كان من شيوخ ابن عبد ربه في الأندلس كما سنذكره بعد : الخشني ، وبقي بن مخلد ، وابن وضاح ؛ وللأولين منهم رحلة إلى المشرق ورواية .

على أن كثيراً من كتب المشارقة وعلومهم كانت ذائعة بالأندلس لعهد ابن عبد ربه ، وكان لها عند العلماء منزلة ومكان ؛ فليس ثمة مايمنع أن يكون ابن عبد ربه قد استعان كثيراً أوقليلا بما كانت تضم المكتبة العربية في قرطبة من آثار المشارقة .

وقد قدّمنا القولَ في صدر هذا البحث أنه لم يسبق ابن عَبد ربه إلى التأليف في باب الأخبار والنوادر على هذا النحو إلا ثلاثة نفر : الجاحظ ، وابن قتيبة ، المبرّد .

أما الجاحظ والمبرد فقد كان لهما نهج في التأليف يخالف نهج العقد ، على اتفاقهما في الموضوع والغرض ؛ فكان انتفاعه بما اطلع عليه من مؤلَّفاتهما في المادة لا في الطريقة ؛ وأما ابن قتيبة ، فإن بينه وبين ابن عبد ربه مَشابهَ من وجوه ، حملت بعض الباحثين على الزعم بأن صاحب العقد كان في نهجه وفي تبويبه لاحقاً مقلداً ، بل قد غَلا بعضهم في الاستنتاج فزعم أن ابن عبد ربه قد سطا على كثير من كتب ابن قتيبة فنقلها نقلاً إلى عقده بحالها من غير تغيير

كبير ؛ وإنه مما يقوِّى هذا الزعم ، تلك الشهرةُ العظيمة التى كان يحظى بها ابن قتيبة عند أهل الأندلس ، حتى كانوا يتهمون من خلت مكتبته من مؤلفاته. ولكن العقد الفريد على الرغم من ذلك غيرُ عيون الأخبار ، وابنُ عبد ربه غيرُ ابن قتيبة ، ولكل من الرجلين شخصيته المتميزة بوضوح من خلال مختاراته ، ولكل منهما مزاجه وروحه ومذهبه وجوُّه الذى يعيش فيه ويُصدر عنه ؛ فسواءٌ كان هذا الزعم صحيحاً أو مبالغةً فى الاستنتاج ، فلن يضير ذلك صاحبَ العقد شيئاً ، ولن ينقص شيئا من قدر كتابه ؛ إذ كانت المادة التى اجتمع منها الكتابان ليست ملكا لأحد الرجلين ، ولا هى أثراً من إنشائه الأدبى الخالص ؛ ولكنها تراث مشترك يتوزَّعه أبناء العربية مما خلَّف آباؤهم .

... وليس معنى أنه لم يسبق ابنَ عبد ربه فى بابه إلا هؤلاء النفرُ الثلاثة، أنه لم يأخذ عن غيرهم ، ولكن الذى نعنيه أن انتفاعه بكتب هؤلاء النفر كانت أظهرَ دلالة على نفسها ، وإلا فقد كانت مكتبة قرطبة لهذا العهد حافلة بطائفة من الكتب لم يجتمع مثلها فى زمان فى مكان ، فلا بد أن يكون ابن عبد ربه قد استعان منها بالكثير ، إلى جانب ما أخذ من أفواه العلماء المغاربة الذين كانت لهم رحلة إلى المشرق أذاعوا بها علم العربية بين الشرق والغرب .

***

ويقول الأستاذ أحمد أمين عميد كلية الآداب فى جامعة فؤاد الأول، فى بحث نشره للتعريف بصاحب العقد (مجلة الثقافة — العدد ٩٤ - ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٠) : «إن أمالى أبى على القالى كانت هى النواة الأولى التى بذرها أبو على فى بلاد الأندلس من علوم المشرق . وعليها تخرج مشهورو الأدباء فى الأندلس ، ومنهم ابن عبد ربه»

وظاهر كلام الأستاذ العميد صريح فى أن ابن عبد ربه كان لاحقاً لأبى على القالى، وأنه من تلاميذه، وأن كتاب « الأمالى » أسبق من « العقد الفريد » وأنه أول مانقل إلى المغاربة من علم المشرق ..

وأرى هذا كله لا يستند إلى دليل من التاريخ، فقد كان مقدم أبى على القالى إلى الأندلس بعد وفاة ابن عبد ربه بسنتين وأشهر (توفى ابن عبدربه بقرطبة سنة ٣٢٨، وكان مقدم أبى على القالى فى إمارة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٠)، وكان تأليف كتابه الأمالى بعد مقدمه بسنين؛ إذ كان هذا الكتاب هو مجموع محاضراته فى جامع قرطبة.

فإذا أضفنا الى ذلك أن ابن عبد ربه قد فرغ من تأليفه كتابه « العقد » فى سنة ٣٢٢ على ما رجحه، وقدرنا المدة التى أملى فيها أبو على محاضراته فى جامع الزهراء قبل أن يجمعها فى كتاب ببضع سنين، كان لنا من ذلك برهان لا يدفع بأن العقد الفريد أسبق من الأمالى ببضع عشرة سنة؛ فلا وجه هناك القول بأن عبد ربه كان من تلاميذ أبى على، وبأن كتابه على منهاجه.

وأما قوله إن كتاب الأمالى كان النواة الأولى من علم المشارقة فى الأندلس فينقضه ما كان معروفا قبل ذلك فى الأندلس من كتب القوم، حتى روى ابن كثير فى تاريخه: أن أهل المغرب كانوا يتهمون من لم يكن فى بيته من مؤلفات ابن قتيبة شىء؛ (توفى ابن قتيبة سنة ٢٧٦، وكان مولد أبى على سنة سنة ٢٨٨)، وكان للمغاربة من العناية بتحصيل علم المشرق والتبكير إليه ما دعا المستنصر إلى أن يرسل وراء النسخة الأولى من كتاب الأغانى لأبى الفرج فيشتريها بألف دينار ...

أضف إلى ذلك أن رحلة المغاربة إلى الشرق كانت متصلة لطلب العلم منذ أوائل القرن الثالث؛ فلا يمكن مع هذا أن يكون علم أبى على جديدا على أهل الأندلس فى أواسط القرن الرابع، وأن يكون نواة وقدوة ومنشىء مدرسة

يتخرج عليها مثل ابن عبد ربه مؤلف العقد . .

***

ويتحدث ابن عبد ربه فى مقدمتـــه عن « تأليف الاختيار وحسن الاختصار » ؛ فأى معنى لما يذكر من حسن الاختصار فى هذا المقام ؟ أتراه يعنى حسن الاختصار فى المجموع ، أو فى كل خبر على حدته ؟ أعنى : هل كان ابن عبد ربه يروى الخبر بحروفه كما سمعه أو قرأه من غير اختصار فيه ، وإنما كان يختصر فى جملة مايروى من الأخبار بحيث لايثبت منها إلا ماتدعو الحاجة اليه ، أو كان يختصر الخبر نفسه فيحذف من حروفه مايحذف وينقص ماينقص ذهابا إلى الاقتصاد فى التعبير عن المعنى الذى ينقله ؟ ..

أقول : هذا العقد بين أيدينا ، وقد نظرت فيه طويلا ، وعاودت النظر مرات ؛ فبدا لى من طول المراجعة أمر لابد من التنبيه إليه : ذلك أن بعض دواعى ابن عبد ربه فى تبويب كتابه ، كانت تقتضيه أن يثبت الخبر مرات فى أبواب متفرقة ، لصلاحيته للدلالة فى أكثر من موضوع واحد ؛ فإذا أنت حققت النظر فى هذه الأخبار المكررة فقل أن تجد منها خبرا مرويا فى موضعين بحروفه على وجه واحد ؛ فثمة الحذف والزيادة والإبدال ؛ وليس هناك من سبب — فيما نرى — لهذا الاختلاف فى رواية خبر واحد فى كتاب واحد لمؤلف واحد ، إلا أن يكون المؤلف يملك من حرية التصرف فى رواية هذه الأخبار مايسمح له أن يرويها بالحذف والاختصار حينا ، وبالبسط والزيادة حينا آخر ؛ ... فهل كان ذلك بعض مايعنيه ابن عبد ربه « بحسن الاختصار » ؟

. . . ولقد يكون هذا الخلاف فى رواية خبر واحد نتيجة لازمة لاختلاف الرواة الذين ينقل عنهم ، أو نتيجة لازمة لاختلاف الكتب التى ينظر فيها ويقتبس منها ؛ ولكن كيف يكون التعليل حين يكون راوى الخبر فى الموضعين واحدا ، والكتاب المنقول عنه واحدا كذلك ؟ ...

أظن أنه يحق لى بإزاء مثل ذلك أن أزعم بأن ابن عبد ربه لم يكن ينظر إلى شروط الرواية تلك النظرة المتحرجة التى تفرض على مثله فى هذا المقام أن يلزم جانب الحرص فى المحافظة على نص مايرويه بحروفه ، وأنه كان يجيز لنفسه أن يتصرف فى رواية بعض الأخبار تصرفا يؤدى بها معناها دون حروفها ؛ وأحسب ذلك يصلح تعليلا لانفراد ابن عبد ربه فى بعض ماورد فى كتابه من نصوص تخالف ما أجمع عليه رواتها فى مختلف كتب الأخبار والنوادر ، وأحسبه كذلك سببا فيما التزمه صاحب العقد ونبه إليه فى مقدمته، وهو حذف الأسانيد فيما روى من أخباره .

فإذا صح ذلك ، كان العقد إلى جانب ماقدمنا من التعريف بمزاياه ،مرجعا لغويا يمكن الاستناد إليه فى بحث شىء من التطورات اللغوية لبعض معانى العربية بين الشرق، والغرب .

صحيح أن بعض هذا الاختلاف فى رواية بعض الأخبار قد يكون مرجعه رواة الكتاب نفسه وكتبته ونساخه ، ولكن إذا صح فى قليلها لايصح فى سائرها .

٭٭٭

بقى أن نسأل : لماذا قصر ابن عبد ربه كتابه على أخبار المشارقة وهو من هو علما وتحصيلا ومعرفة بآداب قومه ، وقرطبة هى ماهى فى ذلك العصر الزاهر فى الأدب والعلم والفن والسياسة ؟ ...

تعليل ذلك سهل ميسور لمن يعرف تاريخ ذلك العصر فى قرطبة وبغداد حاضرتى البلاد العربية فى الغرب والشرق .

لقد كان فرار عبدالرحمن الداخل ابن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان إلى الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية فى المشرق ، محاولة جريئة لإقامة حكومة أموية فى المغرب بإزاء الحكومة العباسية فى بغداد ، ولقد حالف

التوفيق عبد الرحمن الداخل فتم له كثير مما أراد ، وأقام عرشا لبنى أمية فى الأندلس يتوارثه بنوه سيداً عن سيد ، كلهم يحرص على النهوض بدولته إلى المنزلة التى يجعلها تناظر بغداد ، فمن ذلك كانت المنافسة بين الدولتين فى الشرق والغرب دائبة لاتنى ، وكانت الوفود لاتفتأ ساعية بين الحاضرتين ، فلا يظهر جديدٌ فى بغداد حتى يكون نبؤه فى قرطبة ، ولا ينجم نجمٌ فى قرطبة حتى يذيع خبره فى بغداد ؛ واتخذت المنافسة بين الدولتين مظهراً علميا يبدو أثره فيما كان من اهتمام المغاربة بالرحلة إلى الشرق للتزوّد من معارفه ، وفيما كان من تطلع المشارقة إلى الأندلس ليعرفوا كل جديد من خبره وما أحدث علماؤه وأدباؤه فى مختلف فروع المعرفة .

على أن المغاربة مع ما كان فيهم من اعتداد بأنفسهم وعصبية لبلادهم لم يكن منكوراً لديهم أن علم العربية فى المشرق كلّه ، منه نشأ وفيه نما وربا ؛ فكانت إليه أنظارهم ، وإليه حجُّهم وقبلتهم ، ولا يتم تمام العالم منهم — عند الرؤساء وعند العامة — إلا أن يكون علمه مَشرِقيا .

وكما نشاهد فى مصر لعهدنا من يتزيد فى الفضل بكثرة مايروى من علم الأوربيين وما يقص من مشاهداته لديهم ومايروى من أخبارهم — كان هنالك فى ذلك العهد . .

. . وفى ذلك العهد كان ابن عبد ربه ، وكأنى به وقد رأى المنزلة التى ينزلها علماء المشارقة من نفوس قومه ، والمكانَ المرموق الذى تحتله مؤلفاتهم وكتبهم حتى كان شأن ابن قتيبة وكتبه عندهم ماقدْمنا — كأنى به وقد رأى ذلك ، فدبر أمراً ، وأحكم خطة ، واتخذ طريقاً ؛ ثم خرج على الناس بكتابه يقول : هأنذا . وها هم أولاء !

وكان علماء الأندلس يرحلون إلى المشرق ، فرحل المشرق إلى الأندلس فى كتابِ ابنِ عبد ربه . . !

ذلك وجه الرأى فيما أحسب لاقتصار كتاب ابن عبد ربه عل أخبار المشارقة إلا قليلا منه ، لاأرى لذلك وجها سواه .

ورحلُ كتاب ابن عبد ربه إلى المشرق تسبقه شهرته ، ووقع نى يد الصاحب ابن عباد، فأقبل عليه مشوقا ملهوفا يلتمس فيه علمَ مالم يعلم ، فما هو إلا أن نظر فيه حتى طواه وهو يقول أسِفا : « هذه بضاعتنا ردَّتْ إلينا ! » . . ثم دار الزمان وجدت الحوادث فى آثار الرب فأخذتهم بالسنين ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات ، وتبعثرت المكتبة العربية فخلت بعد امتلاء ؛ ولكن علم المشارقة ظلَّ محفوظاً بين دفتى كتاب ابن عبد ربه المغربى الأندلسى القرطبى . . !

هذا . وقد كان كتاب العقد من بعد ، مرجعاً له خطره ومقداره عند كثير من علماء المشارقة ؛ فنقل عنه القلقشندى فى صبح الأعشى ، والنوبرى فى نهاية الأرب ، والأبشيهى فى المستطرف ، والبغدادى فى خزانة الأدب، وابن خلدون فى المقدمة ، وغير هؤلاء كثير ، حتى قل أن يخلو كتابٌ من كتب النوادر بعد إلا كان العقد مرجِعَه وخزانة علمِه . ولو أننى ذهبت أستقصى أسامى الكتب التى سطا أصحابها على العقد فاحتملوا من خزائنه ما أغناهم وذهب بصيتهم وشهرتهم كل مذهب — لأعيانى البحث وانقطع بى دون الاستقصاء .

***

ولكن هذا الكتاب على ماقدمت من وصفه ومن خبره واحتفالِ العلماء به ، لم يسلم من عبث الأيام ، وعدا عليه ماعدا على كثير من تراثنا العربى فى الشرق والغرب ، فلم يصل إلينا إلا بعد ماتناولته أيدى العابثين بالمسخ والتشويه والحذف والزيادة ، حتى أوشك — بما دخل عليه — أن يفقد قيمته العلمية عند أهل البحث والنظر .

وكانت أولى طبعاته فى مصر سنة ١٢٩٣ هـ ، ومن هذه الطبعة كل الطبعات التالية ، فهى صورة منها بما فيها من الغلط والتحريف والحشو والنقص ، ولم يحاول أحد منذ ذلك التاريخ أن ينظر فى هذه الموسوعة العربية نظر العالم المحقق فيخرجها لقراء العربية فى صورة أدنى إلى الكمال . بلى ، قد حاول هذه المحاولة غير واحد من أهل التحقيق ثم ارتدوا جميعا على أعقابهم ، ومن هؤلاء من يعد رأسا فى الآداب العربية ، منهم الأساتذة الأعلام أصحاب «مختار العقد» : المرحوم محمد الخضرى بك، والمرحوم عبد الخالق عمر بك ، والمرحوم عبد الحكيم محمد ، والأستاذ الشيخ عبد العزيز خليل بك — أطال الله حياته ! انظر إليهم يقولون فى مقدمة المختار بعد كلام فى وصف العقد :

« ... غير أنا رأينا فيه ثلاثة عيوب كادت تذهب بحسنه وتمحو الأثر من استفادة الناس به : أما الأول فتحريف يكاد المعنى يضيع بسببه فى كثير من مواضعه ؛ حتى سمعنا من أديب كبير أن إصلاح العقد الفريد مما ليس فى مكنة إنسان ؛ ويبيّن لك هذا أن تنظر إلى مثل هذه الجملة : « والفرح فى أهلك » ، ثم تعلم أنها حرِّفت عن : « القدْح فى الملك » وحينئذ يظهر لك صعوبة هذا الإصلاح حقيقة ... الخ » .

قلت : ولو أن الأمر اقتصر على مثل عبارة « الفرح فى أهلك ، والقدح فى الملك » لكان الأمر أهون مما قدّروا ...

وسمعت ممن لا أتهم أن المرحوم الأستاذ المرصفى ، شيخ أدباء الجيل . همّ مرة أن يقرأ العقد لتلاميذه ثم نكص ؛ اشفاقا من مشقة تصحيحه ، فإذا كان هذا الخبر صحيحاً ، ولا أحسبه بعيدا من الصحة ، فإن فيه الدلالة على مقدار ما عبثت الأيام بأصول هذا الكتاب ، وما يعترض سبيل تصحيحه من أهوال ..

* * *

قلت : إن فى النسخة التى بين أيدينا اليوم من العقد ما فيها من المسخ والتحريف والنقص والزيادة . أما المسخ والتحريف فحسبى الإشارة إلى نوعهما فيما ذكرت قبل من قول أصحاب « مختار العقد » ، وأما النقص فإن مواضعه ظاهرة فى هذه الطبعة بما زدت من العبارات والحروف بين العلامتين [ ] ، وأما الزيادة فحسب القارىء منها مثل واحد أنبهه إليه : فقد كانت وفاة ابن عبد ربه مؤلف العقد على التحقيق سنة ٣٢٨ هـ ، فمن أين له أن يترجم فى أخبار الخلفاء وتواريخهم للراضى والمتقى ، والمستكفى ، والمطيع ، وكلهم بعد وفاة ابن عبد ربه ؟

انظر الجزء الخامس من هذه الطبعة .

* * *

ذلك هو العقد الفريد كما كان ، وهاهو ذا اليوم بين يدى قارئه ، لا أزعم أنى بلغت به كل ماأردت ، ولكنى بذلت له كل ما أطقت ، وحسبى أن أجد بين يدى قرا. العربية اليوم نسخة من هذه الموسوعة الجامعة أقرب إلى الكمال والصحة ؛ لأشعر بالرضا إلى مابذلت من جهد وماأنفقت من عافية ، ولا أحاول أن أصف عملى بأ كثر مما يصف نفسه ، ولى من حسن تقدير القراء فيما أحسنت ، وواسع مغفرتهم فيما قصرت مايمنعنى من استجداء الثناء أو تقدير المعاذير ، والله حسبى !

* * *

وإذ كان العقد على ماقدمت من قيمته لكل باحث ، كان لا بد لتمام نفعه أن يكون لها فهارس ترشد إلى أبوابه وتهدى إلى مسالكه ، فعنيت بأن أقسم فهارسه إلى خمسة أنواع :

١ — فهرس الموضوعات ، وقد جعلته ملحقا بكل جزء من أجزائه

٢ — فهرس الأعلام ، ويشمل كل مايضم العقد بين دفتيه من الأسماء والكنى ، من غير التفات إلى مراتبهم العلمية .

٣ — فهرس القوافى .

٤ — فهرس القبائل والبطون والأماكن والبلدان والطوائف .

٥ — فهرس أنصاف الأبيات .

وهذه الفهارس الأربعة الأخيرة ملحقة بالجزء الأخير من الكتاب، مرتبة على حروف الهجاء.

وأحسب أنه كان يسعنى أن أجعل للأمثال فهرساً سادساً ، لولا أنى رأيتها مجموعة فى كتاب واحد من جواهر العقد ، بحيث لا يصعب على القارىء أن يهتدى منها إلى ما يريد من غير احتياج إلى فهرس يهدى إليها .

٭٭٭

وقد ارتضيت أن أجعل الكتاب فى ثمانى مجلدات ، إذ كان العقد — على أنه كتاب العالم والأديب والمؤرخ — مما لا يستغنى عنه طالب القصص والنوادر ، ومُلتمِسُ الفكاهات والمَلَح ، ومتتبِّعُ الأخبارِ والطرَف ؛ ومثل هذا الكتابَ الذى يُلتمس للرياضة واللهو ، ينبغى أن يخفَّ محمله ؛ ليسهل على صاحبه فى السفر والحضر ، وفى الحديقة والمنزل .

٭٭٭

. . . ويبقى أمر لابد من التنبيه إليه ، ذلك أنى آثرتُ تسميةَ الكتاب بالاسم الشائع الذى يعرفه به أكثر قراء العربية اليوم فى مختلف أقطارها ؛ وهو « العقد الفريد » ، وإنما سماه مؤلفُه يوم ألفه « العقد » فقط ، فاستحدث المتأخرون هذه الصفة « الفريد » . وُفق إلى هذا الرأى المستشرقُ الألمانى بروكلمان (Brockelmann) ، وتابعه بعضُ الباحثين من كتاب العربية ؛ ويرجِّح الأستاذ جبرائيل سليمان جبُّور فى كتابه (ابن عبد ربه وعقده) أن زيادة « الفريد » فى اسم الكتاب وقعتْ فيما بين سنتَى ٦٥٢ — ٨٥٠ ﻫ ، وقد استند فى رأيه ذلك إلى دلائل حقيقة بالتقدير والنظر ، فمن شاء فليرجع إليها ثمة (ص ٢٩ — ٣١) فإن فى ذكرها هنالك غناءً وكفاية .

محمد سعيد العريان

من هنا وهناك

خطرات سريعة

للأستاذ حسنين حسن مخلوف

اعتزمنا بعون الله أن نكتب خطرات سريعة فى كل عدد يصدر من مجلتنا، راجين أن تكون صورة مصغرة لما يشغل الأفكار والعقول فى المجامع والصحف ناقدين ما يستحق النقد.

نعم إن النقد فى مصر عسر؛ لأن الناس يحبون أن يحمدوا، وما دروا أن الحقيقة بنت البحث، وأن شرطنا الإخلاص والصدق، وسيرى حضرات القراء مجموعة صالحة من آداب وأخلاق ونظم واجتماع وحرب وسلم.

ميلاد المسيح ضج العالم ضجيجا شديدا فى ليلة عيد الميلاد من هول الحرب التى تفتك بالإنسانية، وتناقض تعاليم المسيح صلوات الله عليه، ورثوا لأتباعه الذين حرفوا رسالته عن موضعها، وأعمتهم المصالح المادية حتى انقلبوا وحوشا ضارية، وربطت ليلة الميلاد بين أقاصى العالم وأدانيه، وبالرغم من أن العالم يخوض فى بحار من الدماء فلم ينس أتباع المسيح فى هذه الليلة أفراحهم التقليدية على طريقتهم، وأن فيها إيقاظا لمشاعرهم وسرورا بأنفسهم وتذكيرا بدينهم، وكيف لا ؟ وأرواحهم تتخطى الأجيال لتتصل بعيسى بن مريم، ويجىء مولد الرسول الكريم محمد بن عبد الله خاتم النبيين ﷺ فنفرح فرحا - بالرغم من مظاهره - أعده مكتوما، ليس فيه النبض المتماسك الذى ينتظم العالم المسيحى فى ليلة الميلاد.

إنا نريد أرواحا فى عالم السماء تحملها الأسلاك من مصر إلى الحجاز إلى العراق إلى اليمن ، إلى الهند إلى البحرين ، إلى جاوه ، إلى المغرب ، إلى جزائر البحار ، ويتنادى أهل المشارق والمغارب من أمة محمد أن قد ولد فى مثل هذا اليوم النبي الأمين فجددوا أيها المسلمون شباب دينكم ، وطهروا أيديكم من الأرجاس والأوزار ، وافرحوا واطربوا طربا هو إلى مناجاة الأرواح أقرب منه إلى مفاتن الأجسام . هنالك يتلفت من لم تبلغه الدعوة . من محمد؟ وما رسالته ؟ فينتقل نور محمد من عالم إلى عالم ويسرى ضياء رسالته فى الخافقين كما سرى من قبل فى أطراف الأرض فيهدى الله لدينه من يشاء .

لجنة بحث حالة اللغة العربية فى المدارس

ألفت فى وزارة المعارف لجنة لدراسة حالة اللغه العربية دراسة تامة شاملة فى مدى عام كامل قوامها أصحاب العزة الأساتذة :الدكتورطه حسين بك . جاد المولى بك . أحمد أمين . محمد على مصطفى . عبد الحميد حسن . على الجارم بك . أمين الخولى . ابراهيم مصطفى . ويظهر أن طول الزمن الذى تبحث فيه سيكفل لها امتحان كل فكرة ، وتقليبها على وجوهها المختلفة ، وزيارة مختلف المدارس زيارة تلمس الداء فى موضعه . أما رأى كاتب هذه السطور باعتباره مدرسا صاحب شأن فى القضية ؛ فإننى أسأل الله التوفيق لهذه اللجنة ، وأن يبارك فى مشروعاتها كما بارك فى المدة التى تدرس فيها شئون اللغة جملة وتفصيلا. والإصلاح الحقيقى الذى نرجو أن يطول أمده – يريد آراء ليست متطرفة ولا رجعية ، يريد نظرا إلى مقدار ما يستفيده عقل الطالب من جهة وحافظته من جهة ، والموازنة بين مقادير الثقافة فى الحالتين ، يريد نظرا إلى أن معلومات الطلبة الآن خاطفة غير مستقرة ، وإلى أن مايتعلمونه قليل التهذيب الصحيح لأخلاقهم وأذواقهم . الطالب يتعلم أدب الدين ولا يؤثر فيه أدب الدين شيئا . يتعلم تاريخ

أدب اللغة من السنة الأولى الثانوية إلى السنة الخامسة ولا يستقر ذلك التاريخ فى وعيه إلا ريثما يؤدى الامتحان ، فإذا ذكرت له ما أخذ فى عام سابق ظهرت الدهشة فى عينيه ، يتعلم القواعد العربية ، ولا يكاد يقيم لسانه لحنا . يتعلم الإنشاء والمدرس مثقل بكراساته من أول العام إلى آخره يملأ ويفرغ سنوات متوالية ، والوزارة تقول له : هات . كم عدد موضوعاتك ياهمام ؟ ومع ذلك فالطالب المنتهى لايحسن كتابة رسالة إلى أحد من الناس . ماالرأى الصالح ؟ ألمناهج طويلة أم قصيرة ؟ طريقة التدريس عقيمة أم سديدة ؟ ألكتب التى بأيدى الطلبة تثير ما كمن من المشاعر أم تميته ؟ ما السر فى أن الطالب تتأثر أساليبه وأفكاره بالبيئة الخارجية الفاسدة ويتقبل ما تفرضه عليه أكثر مما يتأثر بالبيئة المدرسية الصالحة ، ويزدرد ما يتعلمه فى المدرسة ازدرادا ؟ يقولون المدرس . والمدرس لم يقصر فيما تسنه الوزارة يوما ما فهو يجهد نفسه ويكد بكل قواه فى أداء الواجب المسنون من مناهج وكتب حتى كاد يكون راهبا فى صومعته . لا تدع له الأعمال المدرسية وقتا من مسائه يخالط الناس ويتعرف ميولهم وأهواءهم وربما كان ذلك عيبا فى المدرس بيد الوزارة إصلاحه . ومن غريب ملاحظاتى أنه حينما تسوء النتائج تقوم الثورة كل عام فتتملق الصحف الطلبة بأن العيب قد يكون فى المدرس ، والمدرس موظف ملجم لا تفسح له الصحف المجال ليرد عليها ويدافع عن نفس مظلومة بريئة منهوكة القوى .

دأب حضرة صاحب المعالى وزير المعارف الدكتور هيكل باشا فى وزارته الأولى للمعارف أن يزور المدارس فجأة ليتعرف حال اللغة العربية خاصة فيجد المدرس فى حالة سارة يحسن الشرح والإيضاح فيرتاح معاليه ويعرب عن سروره . ويدخل المفتش ليؤدى عمله فى دروس اللغة العربية فيجد المدرس يحسن تفسير المنهج ويجد حسن أثره فى الطلبة ويسألهم فيما درسوه فيجيبون .

إذا لماذا تضعف اللغة العربية ؟ هذا لغز على اللجنة الموقرة أن تحله .

الواقع أن النظر فى الإصلاح موضوع متشعب النواحى يحتاج إلى أن نستلهم الله السداد لهذه اللجنة حتى تثمر الثمر الشهى النافع إن شاء الله تعالى !

أسرة الشعر بدار العلوم :

قرأت فى بعض الصحف الأدبية أن لفيفا من أساتذة الأدب العربى بدار العلوم كوّن أسرة للشعر تنتظم الطلبة الشعراء بالدار . وماذاك بجديد على دار العلوم التى أخرجت للأمه ولاتزال تخرج النخبة من الأدباء فى مصر من عهد إنشائها إلى يوم الناس هذا ، فالشعراء الذين شربوا من رحيق هذه الدار امتازوا بالديباجة المصقولة، والألفاظ المتخيرة، وسلاسة الأسلوب، وعمق المعنى ، فهم أبناء اللغة العربية الأبرار . ورب شاعر من غيرهم يقول الشعر العربى فتنكر اللغة وجهه ، وتتجهم لمعانيه وأساليبه وأخيلته . ولولا أن رجال دار العلوم يخرجون منها إلى حرفة التدريس التى يقصر عليها المجهود بكرة وعشيا لما جرؤ أحد أن يتهمهم بقلة الإنتاج . ولكن أين المنصفون الذين لايقصدون من قولهم غرضا مستورا ؟ . ولما كان الشىء بالشىء يذكر فقد حضرت حفلا بالدار من سنوات لذكرى المغفور له الأستاذ أبى الفتح الفقى طيب الله ثراه ! فأجاد الطلبة رثاءه والتنويه بفضله شعرا كما أجادوا نثرا ، ولكنى افتقدت فى القائلين من الطلبة الخطيب المرتجل وودت أن تنمى روح الارتجال الخطابى فى الطلبة ، وأن يتسابقوا إلى هذا الغرض الجليل فى المباريات الأدبية والموضوعات الاجتماعية التى تشغل الأذهان .

كان الأستاذ الأديب إبراهيم سلامة المدرس فى دار العلوم الآن خطيبا مرتجلا فياضا وهو طالب فى دار العلوم، ثم سمعته يخطب إبان الثورة المصرية

فى جامع ابن طولون فأعجبنى إعجابا ملك على حواسى، ثم قرأت فى الجرائد قديما أنه زلزل الدنيا بخطبه الارتجالية لترشيح المرحوم سعيد باشا فى الانتخابات فى الإسكندرية حتى أجلسه على كرسى النيابة ، فأرجو أن يكون عميق الأثر فى طلبة المدرسة حتى يتعودوا الخطب الارتجالية ، وألا يكون قلبه أدركه الشيب وإن شابت مفارقه .

ولعلى أوفق فى وقت قريب إلى حضور بعض مساجلاتهم وخطبهم فأجد أملى قد تحقق !

أدب الحرب :

لعلى أكون من المخضرمين الذين أدركوا الحرب العالمية السابقة وفهموا كثيرا من تموجات الحياة بسببها فرأوا تجديد الأفكار وبناء العقليات بناء جديدا، وحياة الأذواق والأفهام حياة نشيطة قوية وثابة ، وقد طغت هذه النتائج الحيوية على الألفاظ والأساليب والمعانى فى الأدب العربى طغيانا مبينا ، فنهضة مصر قبس من أشعة الحرب العالمية الكبرى ، فإن نسب المؤرخون أدب مصر الحديثة إلى نهضتها فأولى لهم ألا ينسوا نصيب الحرب الفائتة فى تجديد الأدب .

أقرأ الصحف اليومية الآن فأجد عصارات العقول فى العالم تخدم أدب الحرب وتبالغ فى الدعاية حتى صار نصيب القلم مباريا لنصيب الدبابة والقنبرة، وأقرأ البرقيات فأجد خيالا بديعا فى خطب تشرشل ، وأحس فى العبارات والجمل فورة دموية طاهرة قوية لابد أن تترك فى أدب المستقبل أثرا ، وأقرأ خطب هتلر وموسولينى فأحس أن نيرون يتكلم ليصك آذانى فلا أعى، وأقرأ خطب روزفلت فأجد عقلا ناضجا وحرصا دقيقا من رجل يعنى مايقول ،

وأقرأ خطب بيتان فأشعر بالقلب الكبير كيف يتماسك وهو فى قبضة العواصف فأذكر قول البارودى :

يا قلب صبرا جميلا إنه قدرٌ يجرى على المرء من أسر وإطلاق
لابد للضيق بعد اليأس من فرج وكل داجية يوماً لإشراق

كل هذه العقليات وأمثالها ستترك أثرا بعيدا فى الأدب يتمشى مع تطور الحرب، ثم تنتج الحرب نظريات اجتماعية تسرى فى الناس، فإذا أنعمت النظر فيها رأيتها تتصل بسلك كهربى إلى هذه الخطب الجبارة . والأدب فى كل اللغات سيتغذى أمدا طويلا بروح الحرب . فكم من ألوف المقالات فى العالم تندب الذين فتكت بهم أدوات الحرب . وكم من ألوف المقالات تكتب عن الروابط الإنسانية فى العالم المستقبل .

ولقد قرأت بوادر ذلك فى برقيات الفاتيكان ولندن وبرلين وواشنطن . ومايدرينا لعل عصبة من الأمم تهيء العالم تهيئة صادقة للسلام . كل ذلك يصنعه أرباب الأقلام !

القنابر لا القنابل :

أعجبنى بحث كان كتبه الأب أنستاس الكرملى عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية فى تحقيق استعمال كلمة القنابل فى مجلة « الثقافة » ومجمل ذلك أن القنبرة أحسن لفظة يليق بنا أن نستعملها لأن السلف اتخذوها فى كتاباتهم قبل زهاء مائتى سنة، وكان فى مقدمتهم الكتاب المصريون . فالقنبرة كرة يختلف كبرها وثقلها باختلاف إيقاع الضرر فى العدو وتكون من حديد أو نحاس أو جوهر آخر . وأصلها من الفارسية (خُمْبَرَهْ) بضم الخاء المعجمة وفتح الباء والراء ومعناها الجَرَّة أو القلة أو الكوز ؛ لأن كثيرا من القنابر

كانت تتخذ على أشكال شتى عدا المستديرة منها : قال المرادى صاحب سلك الدرر (المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ) : « ثم بعد أيام حاصر القلعة الدمشقية ونصب لها الأطواب من المرج الأخضر وضربها بالقنابر » وفى سنة ١٢١٣ هـ كتب السيد خليل البكرى نقيب أشراف الديار المصرية رسالة طويلة ذكر فيها الأهوان والقنابر « راجع كتاب الأنيس المفيد للطالب المستفيد .»

زد على ذلك أن مجمع فؤاد الأول للغة العربية قرر فى يناير سنة ١٩٣٩ أن يقال قنبرة وفى الجمع قنابر ورذل القنبلة والقنابل فقطعت جهيزة قول كل خطيب .

حسنين حسن مخلوف

المدرسة الإبراهيمية الثانوية

تعليق على مقال

الانشاء فى المدارس الثانوية

للأستاذ عبد الرزاق حميدة

كتب أستاذنا الفاضل محمد بك على مصطفى المفتش بوزارة المعارف مقالا تحت العنوان السابق فى العدد الذى قبل هذا من صحيفة دار العلوم ذكر فيه ملاحظاته على تدريس الإنشاء، ومستوى الكتابة فى المدارس الثانوية، آثر فيه طريقة النقد الصحيح؛ فبين العيوب والحسنات التى رآها فى كراسات التلاميذ، وأنصف فيه مدرسى هذه المادة إنصافا غير مستغرب ممن يعرف أخلاق الأستاذ الفاضل وصفاته. وتحدث عن عناية المدرسين باختيار الموضوعات، واجتهادهم فى تنويعها، وملاءمتها للسنين المختلفة، وبذلهم الجهود المضنية فى تصحيح كراسات الإنشاء وطريقتهم فى هذا التصحيح، ووجه نظر المدرسين إلى عيوب الكتابة، وإلى خير طريقة لتلافى هذه العيوب، وأضاف إلى تلك الطرق طريقة الإشراف على التلاميذ وقت كتابة المسودات، وإفادتهم فى كل مايعرض لهم من مشكلات.

ولكنى مع تسليمى بفائدة تلك الطريقة أجد من المتعذر السير فيها كما يجب؛ إذ أن عدد حصص الإنشاء لا يكفى لذلك. فعلى المدرس أن يكتب العنوان أو يمليه، ويقسم الموضوع إلى عناصر، ويرتب المعانى ترتيبا منطقيا، ويمد التلاميذ بالجيد من المنثور والمنظوم والأمثال، وبالآيات والأحاديث وأقوال العظماء التى تصلح للاستشهاد فى تدعيم رأى أو دحض حجة. وبعد

هذا لابد من الاستماع إلى حديث بعض التلاميذ شفوياً عن الموضوع ليقوم ألسنتهم، ويصلح مايحتاج إلى الإصلاح من عباراتهم ومنطقهم، ولاشك أن هذا يستغرق أكثر من الزمن المخصص للإنشاء الشفوى فى الأسبوع. فإذا أخذنا الزمن المخصص لكتابة الموضوع تحريريا فى المدرسة لنتم فيه الحديث عن الموضوع على النمط المتقدم، كان من المحتم أن يكتب التلاميذ الموضوع خارج الفصل. ولهذا عيوب منها اختلاف لون الحبر، وعدم الحرص على النظام الواجب الاتباع فى ترتيب العناصر، وأصبح غير ممكن أن نلاحظ كتابة المسودات وأن نصلح أخطاءها.

أما الذى أراه أنا، فهو أن تزاد دروس الإنشاء أو يقل عدد الموضوعات التى تتحتم كتابتها كل عام. وقد يبدو هذا غريبا لأن كتابة أربعة عشر موضوعا فى الأشهر الثمانية الدراسية شيء ممكن أو أقل من الممكن كما يظهر، ولكننا إذا أنقصنا من حسابنا أسابيع الإجازات وشهر رمضان، وأسابيع امتحانات الفترة، وأيام الصيف التى تسبق الامتحان النهائى ظهر لنا أن المدة الباقية قليلة على هذا القدر من الموضوعات وتدريسها دراسة مفيدة فائدة تامة.

وقد لاحظ أستاذنا الفاضل عدم توزيع الموضوعات توزيعا متناسبا، وأخذ على المدرسين أنهم يتمون دروس الإنشاء فى أواخر مارس أو أوائل أبريل ولكن لهذا سببا يعرفه أستاذى حق المعرفة. فنتائج الامتحانات لها أهمية كبرى عند وزارة المعارف، وقد تترتب عليها العلاوات والدرجات، والبقاء فى بعض البلاد أو النقل إلى أخرى. والمدرس مضطر أن يجارى وزارة المعارف فيما تذهب إليه، وأن يهيء لمقاييسها التى وضعتها لتعرف بها جودة المدرس وكفايته واستحقاقه للعلاوة أو الدرجة. وهى نجاح تلاميذه فى الامتحان. فإذا نظرنا إلى دروس الإنشاء وجدناها بطيئة الثمرة. لا تظهر آثارها فى عام واحد. والذى تظهر ثمرته سريعا هو القواعد والتطبيق والأدب، ومن أجل

هذا يضطر كثير من المدرسين إلى إهمال الإنشاء التحريرى آخر العام ، وينتهى من العدد المقررة كتابته قبل آخر العام بشهر أو أكثر لينصرف هو وتلاميذه إلى القواعد والتطبيق والأدب وهو أكثر ثقة بنتيجة تعبه ، وأقوى إيمانا بأن كثرة التمرينات فيها مجدية ، والتقدم فيها سريع محسوس . وحفظ القواعد وحل التمرينات واستظهار بعض أسباب ارتقاء الأدب أو انحطاطه أو مميزات الكتابة أو الخطابة فى عصر من العصور تكفل للتلاميذ النجاح وله حسن العاقبة .

وإذا كلف المدرسون تلاميذهم كتابة الإنشاء فى أبريل أو مايو ، فكم موضوعا يستطيع التلاميذ أن يكتبوا فى هذه المدة من شهور الصيف ؟ وهل ترى يا أستاذى أن عند المدرس قدرة كافية على تصحيح كل هذه الموضوعات على طولها ؟ وهب مدرسا عنده ثلاثة فصول ، فى كل فصل خمسة وعشرون تلميذا . يكلفهم كتابة موضوعين فى أبريل ومايو ، فكم كراسة يصححها فى هذا هذا الوقت الخاص من السنة؟ إنه مضطر فى هذه الحالة أن يصحح مائة وخمسين كراسة ، مع القيام بما يكلفه من شهادات ورصد درجات ، وأعمال كتابية أخرى . وكيف حال التلاميذ واستعدادهم لكتابة الإنشاء فى هذا الوقت من العام ، وهو وقت الاستذكار والسهر والتحصيل؟

وإذا كانت « الكتابة عادة عملية تجود بالمزاولة » وكان التقدم فيها بطيئا لا يظهر فى عام واحد ، فمن الخير أن يضمن المدرس نجاح تلاميذه من طريق آخر غير طريقها ، بعد ما بذل من جهد مشكور طول العام فى اختيار الموضوعات وإعدادها ، وإصلاح أخطاء وترتيب أفكار ، وتربية أذواق .

هذا وإن حديثك المنصف قد دعانى إلى أشد الإعجاب بأولئك الأبطال ، فلم أكن أعتقد أنهم وصلوا إلى هذا الحد العظيم من الإحاطة بمشاكل الحياة ، والوقوف منها موقف الباحث عن حلها ، ولا أنهم طرقوا كل هذه الموضوعات

التى ذكرتها ، والتى تحتاج إلى عقول ناضجة ، وإحساس دقيق ، وقراءة مستمرة ، ونظرة ثاقبة إلى الحياة والبيئة ليختاروا منها ما يناسب التلاميذ والأعياد والحوادث .

أما اختيار المدرس الموضوع فهو ضرورة كما تعلم ؛ لأنه لو كلف تلاميذه أن يكتبوا موضوعا عن ناحية من نواحى ضعف المجتمع المصرى ، ووسائل علاجها مثلا لجاءه التلاميذ بالعجب العجاب ، من مبالغة ، وإغراق ، وإيجاز وإطناب ، وإحصاءات رسمية وغير رسمية ، وأفكار تحتاج فى تنظيمها إلى أسابيع ، وخرجوا عن الموضوع خروجا لا يستطيع ردهم إليه . على أن ترك الحرية للتلاميذ واجبة أحيانا على شرط تحديد الدائرة التى لا يجب تجاوزها ، وأن يكون ذلك فى الفرق العالية .

وهناك عوامل يراها البعض حائلة دون التقدم فى كتابة الإنشاء كما يرجون ، من ناحية عروبة الأسلوب . وصحة التراكيب . فتلاميذ المدارس الثانوية يقرءون كثيرا من الكتب المترجمة التى تباع بثمن بخس ؛ لأنها تناسب دور المراهقة وقوة العاطفة والخيال ، وتوافق هواهم فى حب المغامرات والإعجاب بالأبطال ، ولكن فى هذه الكتب آثارا كثيرة من الأساليب والتراكيب الأجنبية ، وفيها آثار من العامية والأعجمية ، مثال ذلك طريقة التعجب فى قولهم : كم هو عظيم ! أو طريقة نفى الجنس فى قولهم « إن رجلا واحدا لا يقدر على هذا » ويقصدون فى الأولى أن يقولوا : ما أعظَمَهُ ! وفى الثانية : لا رجل يقدر على هذا أو لا أحد يقدرُ عليه .

وأرى أن نجارى التلاميذ ، ونقرأ معهم هذه القصص القيمة ، ونرشدهم إلى ما فيها من علاج لمشاكل الحياة ، ودقة فى الوصف ، وقدرة على إثارة العواطف والخيال ، وإلى ما فيها من فكر مرتب ، وذوق سليم ، ثم نرشدهم كذلك إلى ما لا نسيغه من عادات وأفكار وأساليب ، وذلك أنفع من تركهم

وحدهم يقرءون على غير هدى ، ومن محاولة تنفيرهم من هذه الكتب التى كان لها أعظم الأثر فى ترقية المجتمعات الأخرى ، والنهوض بالأخلاق والأذواق نهوضا عظيما :

أما رغبتك فى العناية بعلامات الترقيم : من فصلات ، ونقط ، وعلامات استفهام ، وتعجب ، واقتباس ، فهى رغبة يجب أن تقابل بالعناية والتنفيذ ؛ لأن هذه العلامات تعين القارىء إعانة كبرى على المكتوب . وقد تريح التلاميذ والمدرسين ، من توضيح الأغراض التى يخرج إليها الكلام عن أصل وضعه ، كما فى الأمر والنهى والاستفهام .

ولكن استعمالها استعمالا صحيحا يحتاج إلى مهارة ، وتمكن من اللغة ، فهى جديدة عندنا وليس لنافيها تقاليد ، ولم يكتب بها إلا القليل من كتب وزارة المعارف ، ولابد من أن توجه إليها العناية ، ويحاسب عليها التلاميذ حسابا يناسب أهميتها ، وبخاصة السهل منها مثل علامات الاستفهام والتعجب والوقف والاقتباس .

وبعد فلك يا أستاذى أعظم الشكر على أن هيأت لى فرصة أعقب فيها على آرائك القيمة ، ونظراتك الدقيقة فى تدريس الإنشاء ؟

عبد الرزاق حميدة

المـــــــــروءة المقنعة

- ٣ -

للأستاذ محمود غنيم

المدرس بمدرسة فؤاد الأول الثانوية

الفصل الرابع

يرفع الستار عن بهو فى قصر الخليفة سليمان بن عبد الملك بدمشق . أربعة من حاشية الخليفة يحفون بمقعده. مقعد الخليفة شاغر . الحاجب واقف بالباب .

أحد الحاشية: ألم ينزل أمير المؤمنينْ ؟

ثان : تروَّ فسوف ينزل بعد حينْ

ثالث — وقد رأى الخليفة

لقد لاح مثلَ البدر وهو تمامُ

الخليفة : سلام على قومى

الجميع : عليك سلامُ

أحد الحاشية: سليمان ، إنت الأمير الهجان

ثان : وأنت أجل ملوك الزمانْ

ثالث : سليمان، إنك أفضل شخص

رابع : على الأرض تسعى به قدمانْ

الحاجب : أميرَ المؤمنين هنا مغنٍّ رخيم الصوت يلتمس الدخولا

الخليفة : مغن ؟ دعه يدخل، رب لحن رقيق أسعد النفس الملولا
إذا خلت الحياة من الأغانى أراها أصبحت عبئا ثقيلا

الخليفة وقد دخل المغنى :
تعال وحرك الداء الدفينا

أحدالحاشية: وأشعل فى جوانحنا الحنينا

المغنى يغنى :
جفنه سالب وقلبي سليب من مجيرى مما جناه الحبيب ؟
فاتن لم يطش لعينيه سهم كلما راش مقلتيه يصيب

أحدالحاشية: أعدْ

ثان : أعـــدْ

ثالث : صوتٌ حسنْ

رابع : يابلبـــلا على فَنَنْ

المغنى : بات يجنى عليَّ وهو برىء وإليه من غير ذنب أتوب
أنت نارى وجنتى ياحبيبي أنت دائى وأنت أنت الطبيب

أحد الحاشية: أعد

ثان : أعد

ثالث : لله أنتا

رابع : أشبهت طير الأيك صوتا

المغنى : كم كتمتُ الهوى فنمَّ عليه جسد ناحل ودمع حبيب
نحن قوم إذا رأينا عشقنا فلنا أعين وفينا قلوب

أحد الحاشية: أجدت

ثان : جدا أيها المغنى

ثالث : جمعت بين رقة وفنٍّ

رابع : هذا مغن له ألحان أطيار

الخليفة : أعطوه من بيت مالى ألف دينار

الحاجب بعد خروج المغنى :

شاعر ياسيدى يرجو الدخولْ

الخليفة : أدخل الشاعر نسمعْ مايقولْ

ما أحبَّ الشعر ماأعذبه! إنما الشعر إلى القلب رسول

الشاعر بعد أن يدخل :

خليفة الله ، شمل الدين مجتمع على يديك فلا زيغ ولا بدعُ

العرب والعجم قد ألقوا أزمتهم إليك إن تدع لبوا أو تقل سمعوا

بقيت للشام بل للأرض قاطبةً فأنت كالغيث فيه الرىُّ والشبع

ألست من معشر كالشهب أوجههم فى الجاهلية والإسلام قد سطعوا؟

بنو أمية سنوا المكرمات لنا يمشون والناس فى الدنيا لهم تبع

هم سادة الأرض لا قطع لما وصلوا من الأمور ولا وصلٌ لما قطعوا

توارثوا الملك أطفالا كأنهمو

فوق العروش عروش الملك قد وضعوا

أحد الحاشية: ماقاله الشاعر حق

ثان : أقسمت أنه صدق

الخليفة : أجدت

الشاعر : جدت فجادت فيك أشعارى

الخليفة : أعطوه من بيت مالى ألف دينار

هنا تسمع جلبة . جماعة يقبضون على رجل شيعى. تسمع أصواتهم من الخارج

الجماعة : اضربوه أوثقوه وإلى الوالى خذوه

الشيعى : ماذا جنيت معشر الأوغاد ؟

الجماعة : هيا به هيا إلى الجلاد

الخليفة والرجل داخل عليه موثقا :

ماذا جرى ماخطب هذا الرجل ؟

الحاجب : هذا فتى يدعو إلى نسل على

يدعو إلى الخروج والعصيان على سلاطين بنى مروان

أحد الحاشية: هذا فجورٌ

ثان : بالغٌ

ثالث : فليقتل

رابع : إن تتركوا أمر الفتى يستفحل

الخليفة : دعونا نسمع الرجلا أهذا منك قد حصلا؟

الشيعى فى غير اكتراث :

أنا أدعو لأهل بيت النبى لست أرضى عن حكمك الأموى

فاقتلونى إن شئتمو أو دعونى أنا صب بحب آل على

فعلى خير الورى وبنوه منك أولى بذلك الكرسى

إن لى مبدأ أعيش عليه أو ألاقى الردى بعزم قوى

أحد الحاشية : تلك لعمرى غاية الوقاحة

الخليفة : كلا لعمرى بل هى الصراحة

الخليفة للشيعى :

لله درك . هذا وجه مغوار إعدام مثلك عار أيما عار

حلوا وثاق الفتى حيوا صراحته أعطوه من بيت مالى ألف دينار

الشيعى وهو يقبل يد الخليفة :

لله أنت من فتى سمح كسبتنى بالعفو والصفح

الخليفة : أعطيته ألفا على قدحه فليعط ألفين على المدح

الخليفة - بعد خروج الشيعى :

أدعِّم عرش الملك باللين إننى أرى اللين أمضى فى الرقاب من السيف

وماثلّ عرش الملك وهو موطد سوى ملك ساس الرعية بالخوف

هنا يصل عكرمة وخزيمة . عكرمة ينتظر وخزيمة يتهيأ للدخول :

الحاجب : مولاى جاء حاكم الجزيرهْ

الخليفة : لابد من حادثة خطيرهْ

« أدْخُلْ

خزيمة : سلام الله يا إمامُ

الخليفة : عليك ياخزيمة السلامُ

« هل للمجىء يا بن بشر من سببْ؟

خزيمة : جئت لأمر عجب أىّ عجبْ

الخليفة : ماذاك هات لنا حديثك هات؟

خزيمة : إنى ظفرتُ بجابر العثراتِ

الخليفة : حقا ظفرت به أأنس ياترى أم ذاك بعض ملائك الجنات؟

خزيمة : وال كبيرٌ من وُلاتك سيدى

الخليفة : أتقول وال من كبار ولاتى؟

« من ذاك ؟

خزيمة : عكرمةٌ

الخليفة بعد أن يطرق قليلا :

إذن ماباله بالأمس كانت منه بعض هنات؟

خزيمة : ما كان غيرَ ضحية لوشاية إن الوشاية أصل كل أذاة

الخليفة : هبه هفا . تلك المروءة وحدها تمحو له ألفا من الهفوات

خزيمة : أرضيت عنه ؟

الخليفة : غاية الرضوانِ

خزيمة — ينادى عكرمة ادخل أذن ياعكرماً بأمانِ

عكرمة — وهو داخل

سلاماً يا أمير المؤمنينا سلاماً يارفاقى أجمعينا

الخليفة : سلاما جابرَ العثرات أقبل لقد أوليتك الصفح المبينا

أرى الكرماء فى الدنيا كثيرا ومثلك أنت يقدر أن يكونا

بمثلك سادت العرب البوادى على الأقطار وامتلكوا الحصونا

همو لم يرهفوا القضب المواضى ولكن أرهفوا الخلق المتينا

أولئك دولتى وبهم أباهى فمن لى بالقياصر ينظرونا؟

عكرمة : أمير المؤمنين سلمت إنا لخطو ملوكنا متتبعونا

أخذنا عنهمو بيض الأيادى همو علموا السماح وعلمونا

ولسنا حين نصطنع المعالى على أربابها متطفلينا

ولكنا أخذناها تراثاً كذا آباؤنا قد عودونا

همو غرسوا فإن نفعلْ جميلا فذلك طلع ماغرسوه فينا

فلا عجبٌ فإن العرب قومى وإنى أتبع الإسلام دينا

الخليفة : هـذا الفتى أحق بالنعماءِ من كل من يمشى على الغبراءِ

فاقضوا له مايشتهى من حاجةٍ ولو أراد النجم فى أبراجه

وبلغوا أمرى إلى الصرافِ يعطيه عشرة من الآلافِ

وهو من الآنَ يصيرُ واليا فى «أذربيجانَ» وفى «أرمينيا»

جزيرة العراق من أعمـالِهِ خزيمةٌ يصبح من عمّالِهِ

عكرمة : هذا لعمرى كرم كبير

أحدالحاشية: اهنأ به

ثان : أنت به جدير

ثالث : بمثل هذا تضرب الأمثال

رابع : وهكذا فلتكن الرجال

الخليفة : هذا فتى أخلق به أن نرفَعَهْ قد فعل البر وأخفى موضَعَهْ

لم يعْطِ عن ضيق ليعطَى عن سعة ولا أتى البر ابتغاء المنفعه

ولا بمنٍّ أو رياء شفعه معروفه عند الإله استودعه

من ساعد المحتاج فالله معه لا يحصد الخير سوى من زرعه

مَنْ منَّ بالفعل الجميل ضيعه خير لمن يمن ألا يصنعه

صنع الجميع خفية ما أبدعه! تلك هى المروءة المقنعة

﴿ ستـــار ختام ﴾

ممنوع تمثيل الرواية بدون إذن المؤلف

محمود غنيم

مدرس بمدرسة فؤاد الأول الثانوية

عن الإنجليزية :

معجزة العيـــد

للأستاذ عبد العزيز عتيق

سيمون سمى !

سيمون سمى !

هـذا سيمون سمى !

كان ذلك نداء الصبية والأطفال ، عندما يرون ذلك الشيخ ، مقبلا فى طريق ، أو سائرا فى مكان !

وكان ذلك الشيخ المسكين ، إذا رأى الأطفال يخاف خوفا شديدا ، ويصفر لون وجهه ، ويرتعش كل جسمه ، ثم يجرى فى الطريق كالمجنون ، وقد يصطدم ببائع ، أو عربة ، أو سيارة ، أو أى شىء آخر ، ولكنه سرعان ماينهض من صدمته ، ويستأنف جريه ، غير مكترث بألم الصدمة . ذاك لأن الألم الناشىء من تجمع الأطفال حوله ، والاستهزاء بترديد اسمه — كان يفوق عنده أى ألم آخـــر .

وكان الأطفال كلما أبصروه لايرحمونه ، كانو يتجمهرون من خلفه ، ثم ينطلقون وراءه كالخيل ، مرددين فى نغمة ساذجة :

سيمون سمى !

سيمون سمى !

هـــذا سيمون سمى !

هكذا كانوا يقسون على هذا الشيخ المسكين ، ويستهزئون بترديد اسمه، إغاظةً فيه ، وفضيحةً له ، وسبب ذلك كما يقول الأطفال ، أنهم كانوا يسمعون من إخوتهم الكبار ، ومن آبائهم وأمهاتهم ، قصصا غريبة،وحكايات مضحكة عن بخله الشديد ، وحبه للمال ، وشقائه فى جمعه ، والسهر فى الليل على حراسته!

وكان إذا سئل الأطفال : لماذا تضايقون هذا الشيخ البائس؟ فإنهم يقولون: لماذا نضايقه ؟ أتسألنا لماذا نضايقه ؟ ألا تعرف حتى الآن لماذا نضايقه ؟ إنا نضايقه ياسيدى ؛ لأنه غنى جدا وبخيل جدا . إنه يكتفى فى اليوم بأكلة واحدة، لاعتقاده، أن الأكل الكثير ضياع للمال ، وفساد للصحة،وإنه ليشترى الملابس القديمة ويلبسها مع قدرته على شراء الجديد من الثياب ، لاعتقاده أن الثانية تحتاج إلى نقود كثيرة ، وتشجعه على الإسراف والتبذير ، وهو لايتمنى أن يكون من المبذرين ؛ لأن المبذرين إخوان الشياطين ، وهو لايحب أن يكون شيطانا على أية حال !

إنه لايعترف فى الليل بغير ضوء الشمعة ، ضوء الشمعة دون سواه ! فى العصر الذى انتشرت فيه الكهربا . وأكثر من ذلك أنه لايستعمل ضوء الشمعة . إلا عند مايريد أن يعد نقوده الذهبية ، ويتحدث إليها حديث الحب والهيام ، ويصف لها آلامه الكثيرة ، فى سبيل جمعها ، والمحافظة عليها .

وكان يكره ضوء الكهربا ويقول : مساكينُ هؤلاء الناس ! لم يدخلون فى بيوتهم نور الكهربا بهذه الألوان الكثيرة ؟ لوشاء الله لجعل الليل مضيئا كالنهار ، ولكنه لحكمة يعلمها خالق هذا الليل وهذا الظلام ، فلم يحاولون إخفاء حكمة الله ؛ بما يخترعون من أنوار تجعل الليل نهارا آخر ؟ لاشك أن الإنسان فى الليل قد يضطر أحيانا للنور ، يضطر إليه لاللعمل والسهر ، والبيع والشراء فالله قد خلق النهار لذلك ، كما خلق الليل للراحة ، ولكنه فى الليل قد يضطر للنور ليستعد للنوم ، أو لبعض الأعمال التي يضطر إليها اضطرارا ،

ومثل هذه الشئون يكفيها ضوء الشمعة . هذا الضوء الهادىء الذى لايعطى المكان من النور ، أكثر مما تعطى النجوم فى الليل الدنيا !

ولم يشاهده أحد مرة راكبا فى قطار ، أو ترام ، أو سيارة عامة ، بل كان يكره القطر والسيارات ، وكلّ وسائل النقل الأخرى ، وكثيرا ما كان يلعن مخترعيها ويقول : إلى أين يجرى أولئك الجهلاء الحمق بهذه السيارات ؟ وماهى الأعمال العظيمة التى يسرعون إليها هكذا كالمجانين ؟ ولم يركبون هذه الآلات الجهنمية التى تدوس كل من يقف فى طريقها ؟ نعم، لم يركبونها وقد خلق الله لكل واحد منهم قدمين لطيفتين ، يستطيع أن يمشى عليهما ، وينتقل من مكان إلى آخر ؟ من أجل ذلك كان يمشى الساعات على قدميه ، ليوفر قرشا واحدا ، لايبالى بالتعب أو العرق ، أو البرد ، أو الحر ، أو المطر أو الثلج !

كذلك لم يتزوج هذا الشيخ . وكان إذا سئل عن ذلك يقول : أتزوج ؟ أأجلب الشقاء لنفسى بيدى ؟ أأحضر سيدة فى البيت تقول لى كل يوم : هات لى كذا . واشترلى كذا . ولماذا لم تحضر لى كذا ؟ وفى النهاية تلد لى أولادا لاتمر دقيقة عليهم ، دون أن تكون لهم مطالب تحتاج إلى نقود ؟ لا ، لا ، لن أتزوج . وإذا لم يكن بُدٌّ من الأولاد فلأتخذْ من النقود التى جمعتها أولاد أفرح بهم ، وأطرب برنين أصواتهم !

هذه بعض القصص التى كانت تحكى للأطفال ، عن الشيخ البائس « سيمون سْمِىّ » ومن أجلها كانوا يجرون وراءه ، ويستهزئون به فى كل مكان ويغيظونه بهذه الأغنية الساذجة :

سيمون سْمِىّ !

سيمون سْمِىّ !

هـــذا سيمون سْمِىّ !

وكان « سيمون سمي » شيخا كبير السن ، هزيل الجسم ، أصفر اللون ، عابس

الوجه ، مخيف النظرات ، له لحية طويلة ، وشعر مسترسل على أذنيه وكتفيه ، ولم يكن يشتغل بغير المال ، فهو يقضى يومه فى جمعه ، وليله فى عده وحراسته. وكان يعيش فى بلاد جوها ُقلّب ، بلاد يكثر فيها احتجاب الشمس ، وتجمع السحب ، وهبوب الرياح وانتشار البرد ، وهطول المطر ، وسقوط الثلج .

وفى أحد أيام الشتاء ، قرب غروب الشمس ، أطل «سيمون سمى» من شباك فى حجرة نومه ، فرأى قطعا كبيرة من الثلج تتساقط فى كل مكان ، فارتعش من هذا المنظر ، وقال بصوت ضعيف :

ــ أخّ ! ثلج ؟ لابد أن ألبس الليلة معطفى ! ولا أبد أن أشعل النار فى المدفأة ، وأقربّها من سريرى ؛ كى لا أشعر بهذا البرد القارص !

وبينما هو يَهُمّ بإقفال النافذة ، وتحقيق ماعزم عليه ، رأى عن بعد طفلا وطفلة يسيران فى الطريق ، كان الطفل يحمل شجرة عيد الميلاد فرحا بها ، وكانت الطفلة تحمل هى الأخرى بعض الأزهار ، ولما اقتربا من منزل «سيمون سمى» التفتت الطفلة فجأة حولها ، فرأت كثيرا من الأطفال عائدين إلى منازلهم ، ومعهم هدايا فصاحت من شدة السرور :

ــ انظر يا « روبن » ! كلهم يحملون مثلنا هدايا عيد الميلاد ! ما أسعد هذا العيد ! وما أجمل يومه ! إنه أحسن أيام السنة ! أليس كذلك يا «روبن» ؟

وسمع «سيمون سمى» البخيل . وهو مطل من النافذة كلام الطفلة ، فامتلأ غضبا وغيظا ، وصاح صيحة الساخر :

ــ أحسن أيام السنة كلها ؟ نعم ، لم لا يكون أحسن أيام السنة كلها ؟ لم لا يكون كذلك عندكم أيتها الشياطين الصغيرة الخبيثة ، مادمتم لا تدفعون شيئا من جيوبكم ، ومادمتم تعرفون كيف تحتالون على آبائكم البلهاء ، وتستخرجون من جيوبهم ثمن كلّ هذه اللعب السخيفة ؟ وتلك الهدايا التى لامعنى لها ؟ ليت لك أيتها الطفلة أبا مثلى ، يُعرّفك أن هذا اليوم أقبح أيام

السنة كلها ! إن هذا اليوم الذى تحبينه كل هذا الحب ، يحدث كثيرا من الضجيج والضوضاء ، وكثيرا من الغضب والإزعاج ، وكثيرا من الشغب والإسراف فى كل شىء ! إنه يضيع المال فى أتفه الأشياء ! فهذا يريد ملابس جديدة ، وهذه تنتظر هدايا ، وذاك يطلب نقودا ، وتلك لعبا أو حلوى . . !! فليت الناس يوفرون نقودهم فى هذا اليوم ، كما أوفرها أنا فى كل الأيام . . .
ثم أقفل ، ومشى إلى حيث الشمعة فأضاءها ، ووضعها على منضدة فى وسط الحجرة ، ولما تأكد من أن الباب مقفل تماما ، أخرج من تحت السرير صندوقا وحمله وقربه من ضوء الشمعة ، ثم جلس على كرسى أمامه ، ولما فتحه وشاهد بريق الذهب ، لمعت عيناه لمعان الفرح ، وضرب برجله اليسرى على الأرض ، وبيده اليمنى على المنضدة ، ثم بسط ذراعيه ، وهز كفيه ، وصاح كالمجنون :

— أهلا ! أهلا ! مرحبا بك يا حبيبى ! مرحبا بك يا أعز صديق لى ! مرحبا بوجهك الذى من أجله ، عاديت الناس ، ونسيت الناس ، وابتعدت عن الناس ، وتحملت أذى الناس ! ومرحبا بك أيضا يا مَنْ مِن أجله ، أتعبت جسمى ، وحرمت نفسى ، وتعرضت للجوع والعطش والعُرى ! سأعدك ثانية يا نقودى ! نعم ، إن أحسن وليمة أقيمها فى ليلة عيد الميلاد ، بل أسعد عمل أعمله فيها ، هو أن أعد نقودى ، وأن أمتع عينىّ بمنظرها ، وأذنى برنين صوتها ، ويدىّ بلمسها ، وأنفى بشمها . . . ! بشمها ؟ ماهذا الذى أقول ؟ ولكنه عاد فقال : وأى شىء فى أن أشمها ؟ إنى - والله — لأجد لها فى أنفى رائحة أطيب من رائحة المسك ، أو رائحة الطعام الشهى !

نعم ، سأعد نقودى مرة ثانية ، وثالثة ورابعة . سأظل أعدها حتى أتعب ، فهى نقودى أنا ، وهى أملى فى الحياة ، وأطفالى الذين أتحدث إليهم ، وألعب كل ليلة معهم ! إنهم أطفال مقتصدون ، يكرهون التبذير كأبيهم ، فهم لا يضايقوننى ، أو يلحون علىّ فى الذهاب إلى دور الخيالة ، أو يطلبون منى

لعبا أو هدايا كما يفعل الأطفال الآخرون ؟

وبينما هو مستغرق فى أحلامه الغريبة ، وفى عد النقود ووضعها صفوفا صفوفا على المنضدة ، سمع طرقا خفيفا على الباب ، وصوتا صغيرا ينادى :

— سيدى سيمون ! سيدى سيمون ! افتح لنا من فضلك .

— ٢ —

ارتعش سيمون سمى من الخوف ، وجعل يسأل نفسه : من هذا المنادى ياترى ؟ أهو لص أتى لقتلى وسرقة مالى ؟ أم فقير يبتغى صدقة ؟ أم غريب لا مأوى له ، جاء يحتمى من المطر والثلج عندى ؟ ولكن كيف عرف اسمى ؟ أم شرذمة من الأطفال الخبثاء ، حضروا فى هذا الجو الممطر ، ليسخروا منى ، ويستهزئوا بى حتى فى منزلى ؟ ولكن المسكين كان جبانا ، كعادة الأغنياء البخلاء ، فاستمر جالسا على كرسيه ، لايقدر أن يتحرك ، ولايعرف كيف يتصرف ، وبينما هو على خوفه واضطرابه ، سمع الباب يدق ، والصوت ينادى مرة أخرى :

— سيدى سيمون ! افتح بربك . إن المطر ينزل بشدة ، والثلج يسقط علينا كالحجارة . آه ، سيدى سيمون ! ألا تفتح ؟ لسنا نريد منك شيئا !

وتبين سيمون سمى فى هذه المرة ، أن الصوت صوت طفل ، وأنه لايليق بمثله أن يخاف من طفل ؛ لذلك تشجع وجمع النقود التى كانت أمامه ، ووضعها ثانية فى الصندوق ، ثم أقفله وأخفاه تحت السرير ، وبخفة أمسك « مسدسه » بيده اليمنى ، واتجه نحو الباب ففتحه ، ولكن باحتراس. أتعرف — ماذا وجد؟

لقد وجد طفلين ، تدل ملابسهما على أنهما فقيران ، وتدل ابتسامة كل منهما على أنهما سعيدان ، وكان فى يد كل منهما طبق عليه غطاء أبيض !

اصفر وجه الطفلة ، عندما رأت سيمون سمى ينظر إليها غاضبا ، وفى يده « مسدسه » وكادت تصرخ من الذعر والخوف ، وترمى بالطبق من يدها على

الأرض ، ولكنها عادت فتشجعت ، وتقدمت نحوه خطوتين ، ونظرت إليه بعينين تلمعان ، ثم قالت له :

— سعدت مساء أيها العم سيمون ! إن والدتى ترجوك — بمناسبة عيد الميلاد — أن تقبل بعض الحلوى التى صنعتها .

وقال أخوها الصغير :

— وترجوك أمى أن تقبل هذه الفطيرة المحشوة باللحم أيضا .

— ٣ —

كانت هذه أول مرة يسمع فيها هذا الشيخ ، كلمة طيبة منذ عهد طويل ، فقد اعتاد الناس أن يمروا به دون أن يحيوه ، واعتاد الأطفال كلما أبصروه ، أن ينطلقوا وراءه ، ويغنوا باسمه هازئين ، وتذكر كرهه للناس ، وما أصابه منهم ، وبغضـه لعيد الميلاد ، فصاح مغتاظا فى وجه الطفلين :

— ولكن كيف آخذ هذه الحلوى ؟ هل أنا فقير ؟

فأجاب الطفل :

— لست فقيرا ، ولكن أمى تقول : إنك تعيش وحدك هنا ، وليس معك أحد يصنع لك حلوى عيد الميلاد ، وقد صنعت لك هذه الحلوى ، وهذه الفطيرة .

— ولكن ماحاجتى أنا لهذه الحلوى ؟ لعيد الميلاد ؟ إنى لا أحبه ! إنه لهو فارغ ، وعبث لافائدة منه ! إنه قصة اخترعها التجار ؛ ليسرقوا الأموال من الجيوب ، باسم اللعب والهدايا .

ونظر إليه الطفل مستغربا ، ثم قال بلغة الطفولة الحلوة :

— أنت لاتحب عيد الميلاد ؟ أنت تكرهه ؟ ألم تسمع أغنية عيدالميلاد؟ ألم تسمع هذه الأغنية التى تعلمناها فى المدرسة ؟ أتحب أن تسمعها ؟ ثم خطا الطفل بسذاجة إلى داخل الحجرة فوضع الطبق على المنضدة ، وبدأهو وأخته

ينشدان أغنية عيد الميلاد الشعبية ، وهما متأثران بها !

هكذا فعل الطفلان ، أما سيمون سمى فقد ظل مكانه ، وفى يده طبق الحلوى ، وحينما سمع أغنية عيد الميلاد ، تذكر كم غنى هذه الأغنية الشعبية وهو طفل مثلهما ! لقد كان يهز رأسه كلما رفع الطفلان صوتيهما فأبصرا دموعا على خديه ، ولكنه سرعان ماجففها ، واحتضن الطفلين ، وقبّل كلا منهما فى حنان الوالد ، ثم قال لهما :

طاب مساؤكما أيها الطفلان ، بل أيها الملكان الصغيران ! يجب أن تخرجا مبكرين إلى باب منزلكما . إنى متأكد أن « بابانويل » سيزوركما الليلة ، وسيحضر لكما معه ماتحبان من الهدايا : والآن عودا إلى منزلكما ، وأخبرا أمكما بذلك ، وبلغاها شكرى ودعائى . هل أنزل فأوصلكما إلى المنزل ؟ إن الظلام شديد ، والرياح تعصف ، والأمطار لا تزال تهمى .

فأجاب الطفلان معا :

شكرا لك أيها العم : إن والدتنا أمام الباب تنتظر عودتنا .

فصاح سيمى سمى :

أمام الباب كل هذا الوقت . فى البرد ، والجو العاصف ؟

نعم ، لقد جاءت معنا ، ثم خلجت أن تصعد إليك ، فأرسلتنا وبقيت هى .

إذن هيا إليها ، وارجعا معا إلى المنزل ، فى رعاية الله .

— ٤ —

واستأذن الطفلان ، حيث عادا إلى أمهما . أما سيمون فقد بقى جامدا فى مكانه مطرق الرأس ، يفكر تفكيرا جديدا ، وبعد لحظة من لحظات التفكير اندفع نحو الصندوق فأخرج منه نقودا دسها فى جيبه ، ثم ارتدى معطفه ، وأطفأ الشمعة ، وأقفل الباب ، وخرج يعدو فى الطريق . وشفتاه ترددان :

نعم سيزورهما الليلة « بابا نويل » بهداياه ، سيزورهما فى شخصى أنا ، وهل « بابا نويل » إلا الأصدقاء والأقارب ، يخرجون فى هجعة الليل إلى إلى منازل من يحبون ، فيضعون أمام أبوابها الهدايا ثم يعودون من غير أن يشعر بهم أحد ؟

ولكن إلى أين كان يعدو فى الطريق ذلك الشيخ البخيل ؟

إلى أكبر محل للهدايا فى المدينة ، حيث اشترى منه ما شاء ، ثم توجه إلى منزل الطفلين فوضع كل ما اشتراه أمام الباب ، ورجع فرحا إلى منزله .

واستيقظ الطفلان فى الصباح مبكرين ، فنهضا من فراشهما وثبآ إلى الباب؛ رغبة فى رؤية ما عسى أن يكون « بابا نويل » قد أحضر لهما من الهدايا .

وفتحت « روزى » الباب ومن خلفها أخوها « روبن » فسرهما أن « بابا نويل » لم ينسهما فقد وجدا أمام الباب لعبا جميلة ، وهدايا غالية ، ووجدا كذلك بطاقة كتب عليها :

من سيمون سمى البخيل ، من ذلك الرجل الغريب القاسى — إلى الطفلين اللذين علماه كيف يكون كريما ، بعد أن كان بخيلا ، وعطوفا بعد أن كان قاسيا ، ومحبا للأطفال والناس ، بعد أن كان كارها لهم !

إلى اللذين علماه أن المال شر إن لم ينفق فى الخير ، وأن الدنيا لا تعدل وجه طفل ، أو قلب امرأة رحيمة عطوف ، وأن عيد الميلاد أحسن أيام السنة كلها حقا ، وأن أحسن ساعات العيد هى ما تدخل فيها السعادة على قلوب الآخرين ، وخاصة قلوب الأطفال الطاهرة البريئة .

وهكذا استطاع طفلان فقيران ، أن يحولا قلب شيخ قاس بخيل ، إلى قلب خير كريم رقيق عطوف ، وكاره للمال إلى محب للإنسان . وبذلك تظهر إحدى معجزات العيد ، ويتجلى مثال من أمثلة خيره وبركته ، ورحمته بالناس ؟

عبد العزيز عتيق

عبد الخالق بك عمر

فقدت دار العلوم أبنا من أكرم أبنائها الذين كانت — ولا تزال — تفخر وتعتز بهم .

وتاريخه — مجملا فى أسطر قلائل — يرينا مقدار الخسارة التى منينا بها ، كما يخبرنا بما كان يمتاز به من علم وفضل أهلاه ، لما تبوأه من مراكز عالية .

فقد تخرج الفقيد الكريم فى دار العلوم سنة ١٩٠٤ وعين مدرسافى عابدين الأميرية ، ثم نقل إلى السعيدية سبتمبرسنة ١٩٠٦ ، وبعد شهر نقل إلى المعلمين الخديوية . ثم اختاره المغفور له عاطف باشا بركات ضمن من كان ينتقيهم من أفاضل خريجى الدار للتدريس بالقضاء الشرعى سبتمبر سنة ١٩٠٨ ، وبقى بها إلى أن ألغيت سنة ١٩٢٥ فرجع إلى أحضان أمه الرءوم دار العلوم . وكان ينوب عن الأساتذة فى مجلسها الأعلى . ولما عدل نظام الدار وأنشئت كراسى للأساتذة كان أول من شغل كرسى أستاذ اللغة العربية (مايو سنة ١٩٣٨) .

وبعد خمسة وثلاثين عاما قضاها كلها تقريبا أستاذا فى التعليم العالى اشتد عليه المرض؛فطلب أن يعفى من الخدمة ١٦ نوفمبر سنة ١٩٣٩ . ولم يمهله القدر طويلا فاختاره الله لجواره فى نوفمبر سنة ١٩٤٠.

وقد تفضل جلالة الملك فأنعم عليه برتبة البكوية ، وكان يحمل نيشان النيل الخامس من سنة ١٩٢٥

وكان رحمه الله مبرزا فى علمه ، وواسع الاطلاع ، عظيما فى خلقه — حتى لا يعرف له عدو — مع اعتزازه بكرامته ، كما كان مثلا عاليا وقدوة صالحة لإخوانه ولأبنائه الذين يفخرون بالتخرج على يديه ، سواء فى ذلك القضاة والمدرسون . فرحمه الله رحمة واسعة! وجعل لنا منه خير العوض!